
حائز جائزة
الشارقة للإبداع العربي 2013
محسن الوكيلي
ريح الشّركي
رواية
دار
الساقي
مكتبة نوميديا 216
Telegram@Numidia_Library

ريح الشّركي

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

محسن الوكيلي

ريح الشّركي





الطبعة الأولى 2017

ISBN 978-6-14425-961-0

تمّ نشر هذا الكتاب بالتعاون بين

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033-6114

هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

الصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)
شارع سرسق، بناية شارل عون، درج مار نقولا، جميزة، بيروت، لبنان
صندوق بريد: بيروت 13-5290، لبنان

هاتف: 901-218-1-961+
email: info@arabculturefund.org
www.arabculturefund.org

فازت هذه الرواية بمنحة آفاق ضمن برنامج "آفاق لكتابة الرواية"، الدورة الثانية، بإشراف الروائي جبور الدويهي.

شكر وامتنان

من باب الإقرار بالجميل أجدني معنياً بتقديم جزيل الشكر للصندوق العربي للثقافة والفنون "آفاق" على دعمه لمشروع هذه الرواية بكافة أطره، ولما بذله من جهد معتبر في خدمة الأدب والفن العالميين، وللأستاذ الكبير جبور الدويهي على كل النصائح والتوجيهات التي أسداها لي خلال مراحل تحقق هذا العمل.

إلى زينب المهداوي، أمي التي لولاها ما كنت لأخطو نحو الكاتب الذي أريد.

توطئة

اختتمت رواية "ريح الشّركي" قبل لحظات وفي ذهني فكرة تلحّ بوضع توطئة تيسّر على القارئ العزيز ارتياد عوالم هذا العمل الذي يختلط فيه الطابع التاريخي بالدرامي والواقعي بالمتخيل.

جدير بالذكر أن رواية "ريح الشّركي" وإن عالجت زمناً تاريخياً محدداً في تاريخ المغرب فإنها ليست عملاً تاريخياً بالمعنى الدقيق للكلمة، فكل الأحداث التي تعرفها الرواية من محض الخيال ولن يجد لها القارئ أثراً فعلياً في المراجع التاريخية، غير أنها، في المقابل، تستقي مواصفات وتفاصيل عوالمها من حياة الإنسان البسيط في زمن أواخر حكم السعديين للمغرب، والذي اتسم بكثرة الأوبئة والاضطرابات وطغيان النظام المركزي المعروف لدى المغاربة بمصطلح فريد هو "المخزن".

هكذا سيجد القارئ نفسه أمام زمن غرائبي يجهل عنه الكثير، وفي مواجهة مصطلحات قلّما واجهها في مسيرته الأدبية، سأترك للقارئ مهمة البحث والتقصي، فهذا جزء من لعبة السرد، التي قد تعطي للنص تفرده، مكتفياً بالإشارة إلى أن مصطلح "المخزن" يأتي،

في تاريخ المغرب، كرديف للسلطة، وتجلٍّ للنظام المركزي، من خلال ممثليه المتعددين: قادة، باشوات، شيوخ... وهو المصطلح الذي لا يزال شائعاً إلى يومنا هذا، عابراً قروناً طويلة، ليجسد في المجتمع المغربي المعاصر، عند الفئات الشعبية، التعبير عن الدولة، وإن اختلفت الماهية وأشكال الحكم، ويمثل، لدى النخبة المثقفة، ما استمر من أساليب الحكم القديمة التي وجب القطع معها.

عزيزي القارئ، شخصيات كثيرة ستعرف أكثر من اسم، قد تتبدّل الأسماء بتبدل الهوية أو تغير السياقات... كنت قد فكرت بوضع دليل صغير لها لكنني آثرت أخيراً أن أترك النص حرّاً طليقاً، ولك أنت، عزيزي القارئ، أن تتعامل معه بالطريقة التي تريد، موقناً، في ذلك، أن النصوص الحقيقية هي ما يبلورها القارئ نفسه، لا ما يخطها الكاتب.

محسن الوكيلي

١

ما إن بلغه النبأ حتى خرج هائجاً إلى أزقة فاس. لم تثره كما مضى، وهو يمخر دروب المدينة المترعة بالقهر والسخط، شبابيك الأرابيسك المهملة، أو أفاريز البيوت التي طالما داعبت بأشكالها وألوانها ذاكرته المسكونة بفن العمارة الإشبيلية ولمسات حرفيي غرناطة، ولا تلك الأثواب السوداء التي تتدلى كحمائم مذبوحة لتنبئ العابرين والطامعين أن الموت الأسود حوّل بشراً، كانوا هنا، إلى ماضٍ، حتى تعابير الوجوه المستفزة، والتي أتلفها القحط ولفحتها ريح الشّركي، طمرها فيض الإحساس بالقهر والخيانة.

صدم في طريقه العجوز فاطمة الخيزران؛ المرأة السبعينية التي خاضت، كظبية، معارك ضارية لتأمين بقائها، والتي بعدما بلغت ذروة مجدها باشتغالها راقصة في بلاط الخليفة بضع سنين، انحدرت لتعمل برضاً قوّادةً لكبار رجال المخزن، فعرّافةً في ربض البؤساء، بين سقائي الجمال والحطابين، قبل أن تنحدر أخيراً إلى التنقيب في مكب نفايات الحجرة السوداء، منتزعةً لقمة عيشها من بين القطط والكلاب. استمرت العجوز سنوات طوالاً تغرس أنفها بين القمائم

ولم تكفّ إلا وقد نضب معين الأزبال في زمن الجائحة. قيل لها أكثر من مرة أن تعدل عن إهانة نفسها، فردت بلا كلل أن معاشرة كلاب المكبّ خير من مصاحبة كلاب المخزن، وأن الاقتيات من نفايات العامة أكرم من لقط بقايا موائد مخنثي البلاط.

انطرحت أم فاطمة الخيزران أرضاً فانكشف شعر قصفته دفقات خريف العمر وريح الشّركي التي ما عصفت إلا وجرّت خلفها الخراب. لن يمد أحد يده ليعينها على الوقوف أو يعيد إليها قفة الدوم التي دأبت على حملها في زمن القحط نكاية في الجياع، مثلما لا يمكن لأي أحد أن يتخيل أن هذه العجوز كانت بقوام رشيق وقدٍّ رفيع يضاهي حسناوات قرطبة زمن ابن عباد.

فاس تتأوه، تئن، والسماء من فوق جافية، حافية، بدل المطر تقدح شرراً... شاخت المدينة مع تعاقب مواسم الجفاف ونزول المِحَل، الواحدة خلف الأخرى... يبّس الجفاف أوصالها التي تدفقت فيها، على مدى أزمان، القوافل التجارية القادمة من نول لمطة وبوداغوست وسجلماسة وشنقيط، تدفق الدم في العروق...

مرّ أحمد بلانكو عبر ممرّ بوجيدة الطويل، الضيق، الذي لا يكفي لغير عابر واحد. معبر يربط، كحبل سريّ، بين شارعين. ينشط في النهار ويموت ليلاً. يعبره عشرات الفاسيين فرادى، رجالاً وركباناً، ثم يمسي مرتعاً للأشباح. قاسٍ على الصدر لون جدرانه الترابي الغامق، طافح بالهزيمة، هذا ما خمن أحمد وهو يمرر كفيه على الجدار ناظراً إلى سماء تبدو كامرأة تطل على العالم من فجوة خمارها الأسود.

تساءل في غمرة اكتشافه للمدينة شهوراً خلت عن المغزى من كل هذا الضيق، يكاد الجداران المتوازيان يطبقان على المارّين. وبدل أن يبحث عن جواب استهوته لعبة المرور. ضحك، في أكثر من مناسبة، رغم القهر وعسر الحال، وهو يتابع الرجال يقرفصون لتمرّ البهائم من فوقهم دون أن تمسهم قوائمها... تمضي الدابة فيسرع الراجل كي لا تعترض سبيله أخرى تجبره على القرفصة من جديد. جرّب بدوره العبور في أيامه الأولى، والحلم بوطن بديل عن الأندلس يدغدغ مشاعره. مرت الدابة من فوقه، لامس بطنها شعر رأسه، وفي صدره تفتق إحساس بمتعة غامضة. فكّر بنوع من الازدراء، أن يكون من فوقه صنهاجي مفرط في البداوة خير من قشتالي متبجّح. تتسع الدروب المسقفة بالقصب، المزدانة دورُها ذات الطابقين بشرفات متقابلة، لكن الإحساس بالضيق يظل جاثياً على الصدور تحت سماء حسمت أمرها...

فاس العظمى، عاصمة موريتانيا كلها، المتبجحة بأسوارها المتينة، العالية، المشيدة على التلال، تبهج في زمن الرخاء، وتريح البال، لكنها تصير سجناً كبيراً في أزمنة العسر.

عبْر ضيق النفس، اخترق الشاب دروباً تتنفس على إيقاع الجائحة. كان الجو صيفياً أوان الشتاء، بضع سحب هشة، تحلق كوشايات كاذبة عن غيوم لن تأتي. صرخ وهو يشرف على ساحة الفتوح:

- كلكم قوادون وأولاد زنا...

كانت حركة المارين بطيئة، مترهلة، ووجوههم كامدة هدّها الأمل الزائف بفرج وشيك. "لا مطر يا أغبياء"، كان لسان حال

الشمس المتكئة على سماء حاقدة... لكن عيون الناس، كنسور، استمرت يقظةً، متحفزةً، مغموسةً في رغبة مكبوتة في الانقضاض. بغريزة الافتراس اتجهت الوجوه إليه. نسوا للحظاتٍ هول الفواجع، الموت المتربص بالجميع في كل زاوية وشبر، واستقبلوا طيش موركسي بائس، مسّته لعنة التمرد، كهبة من السماء.

تابعوه عن بعد وهو يرتقي فوق كومة الصناديق المتراكمة لصق الجدار، وهو يعتلي سطح المنزل ماضياً إلى أعلى السور... مشى إلى قوس باب أبي الجنود، وما إن توسطه حتى شرع في نزع الجلباب الذي أهداه إياه محارب بحري أثناء نقلهم من ميناء طريفة إلى شواطئ العدوة السفلى. تخلص من الجلباب، أرخى الحزام وترك سرواله يسقط، وكخطيب منفعل تحدث إلى الجمع:

– أيها الأوغاد، خذوا ما شئتم من بقايا غرناطة وإشبيلية... من يدفع رطل قمح لقاء عبد؟ من يدفع حفنة شعير ويخصيني كما سيخصي قوادو البلاط أخي؟ كما يُخصِي البدو البغال؟... ها هو ظهري عريض يتسع لممشى مولاي الخليفة، ومرقى لمولاي السلطان...

لم يمهلهم كثير وقت، وضع يده على شيئه، داعبه ليثير في صدورهم المزيد من السخط، مؤخرته نحو الشمس، عيناه مفتوحتان، وعضوه ذابل بين أصابعه...

لن ينسى فرط المتعة التي شعر بها ورذاذُ بولِه يتطاير فوق الرؤوس، ولا نشوته في ردّ الدين لكل الذين جاروا عليه. تمايل كسكران، ترنح، ثم قهقه بجنون:

– مطر، مطر، مطر معتق، مطر مخلل... مطر يروي العطاشى

ويريح الحزانى...

قبل أيام قليلة كان معظم هؤلاء الواقفين في ساحة البطحاء جاثمين على صدر باحة جامع القرويين وأطرافه لأداء صلاة الاستسقاء استجابة لنداء السلطان... دعوا الله خاشعين بإيمان وإحساس بالذنب، ورغبة في التوبة من معاصي لا يدركونها تحديداً... قال لهم الفقيه إن المعاصي والخطايا وسفور النساء ورعونة الشباب ما يجلب غضب الله على الأرض... وها هو أحد الخطايا يتجلى واقفاً في صورة بشريّ عنيد.

- أنزلوا الكلب، أنزلوا الملعون حتى نريه حق قدره.
- أمسكوا الخائن، عميل الترك.
- أنزلوا القوّاد...

اختلطت الكلمات، وتداخلت عبارات الاستنكار، تحولت إلى صياح، ثم إلى رغبة في القصاص. هاجوا، تدافعوا... وبدا في لحظة أن الموركسي الشاب هو سبب كل المآسي التي مسّت البلاد. ابتسم في وجوه أرتال بدت كالنمل... تمنى طوفاناً يكنس الجميع إلى وادي الجواهر[1] حتى يتدفق الماء بالبشر بدل مياه الصرف. دفع بوسطه إلى الأمام صائحاً في وجوههم:

- طلبتم المطر، ها هو بولي يفي ويشفي.

تنافسوا في ارتقاء الصناديق وتسلق السور. الإمساكُ بصعلوك ضالّ مزية في الزمن الضنك.

- هيا، تعالوا يا عبيد السلطان...

---

١ يسمّى في فاس حتى اليوم "واد الجواهر".

أغمض عينيه، حاول أن ينسى من يكون، من أين أتى، والمصير البائس الذي زفه إليه جاره عن أخيه. قال له الجار بتشفّ بادٍ وهو يغالب رغبة ملحة في الابتسام:

– سيخصى أخوك في البلاط، باع نفسه بثمن بخس...

"هل يوجد في هذا الزمن الأغبر سلعة أرخص من البشر؟"، فكر أحمد بلانكو في ذهول اللحظة الأولى. مع الصمت، قرر الجار أن يتقدم أكثر:

– أضعتم مع الأرض كرامتكم... وصرتم كالبغايا، دككم ملك قشتالة هناك، ووطئكم الخليفة هنا.

نزع المصراع الخشبي عن الباب، دون كلمات، سدّد للجار ضرباتٍ سريعةً حاز الرأس معظمها، ثم حمله كخرقة إلى شرفة الطابق الثاني... لم يحفل بعاقبة جرمه، يدرك أن الموت في زمن الطاعون مسألة وقت. في الأسفل كان بضعٌ من حطابي القصر يجرّون في عربات من عجلتين أكواماً من الخشب وزبل البهائم، على مقربة كانت العجوز عائشة الخيزران تحمل أعوامها السبعين وقفة الدوم، تمشي دون بوصلة. تابع الحطابون سبيلهم، أما عائشة فتوقفت؛ إلقاء رجل من شرفة عالية حدث من شأنه أن يحرك شيئاً في حياتها التي ركدت منذ عقود.

تناسى بؤس الزمن وجفاء الأرض. استطاع أن يتنفس أخيراً بهدوء، أفرغ مع البول الأصفر المعتق الكثير من الغم. ما عاد يهاب شيئاً ولا يكترث لأمر، ارتخى فتلقفته عشرات الأيادي الحاقدة.

٢

على خلاف الأوامر الموجهة إلى بطانة البلاط وخدمه استمر ميندوسا بلانكو يجوب أزقة المدينة العتيقة وحواريها. العمران المشيد من الآجر، المزين بالقرميد، والطرقات المعبدة بالحجر الصقيل، السارية كخيوط العناكب، تثير في صدره شجوناً لم يفلح في وأدها بعد. مضى يدندن مردداً موشحات الملحون التي حرم من الصدح بها إبان عيشه في إشبيلية. "لا بد أن الغناء يجعل الأمكنة أكثر ألفة مع مرتاديها"، خمن مرافقه المنتسب إلى عبيد الحراطين. الريح المترعة بالقحط، المصحوبة بموجات الغبار والزوابع، تجعله أكثر تحفزاً لحياة مترعة بالريبة والخوف. مشى طويلاً. كان في حاجة لمعرفة تفاصيل أكثر عن الأرض اليباب والمدينة والناس. أثارت فضوله أبواب المنازل التي تُرِكَتْ مفتوحةً بعدما قضى كل من فيها. بدت كخِرَبٍ مسكونة بأرواح من ماتوا. ولج إلى ميضأة في حارة المواسير ليفرغ مثانته فزكمته الرائحة الكريهة. توقفت المياه التي كانت تتدفق من روابي الأحواز، آتية على ناصية الأسوار، في قنوات متصلة، بديعة، لتنظف في جريانها الدائم، مواضئ المدينة المنتشرة في كل مكان...

لكم في كل درب ميضأة. إني لأجد فاس مرحاضاً كبيراً.
بدونها لكان الخراء في كل مكان.

سيبولون الدم يا صاحبي إلى أن تجف أجسادهم ثم يخرون أمعاءهم.

لا يهمني في فاس شأن، ولا يحزنني عليها أمر، أنا من تمبكتو أعيش هنا كبغل مخصي وحسب.

يشعره الرد بالدفء. يمد يده ليصافح المخصي:

– هذه الريح الحارقة التي تهب، آتية من الصحاري، تزيل عني الكثير من الغم. تزفر فتحرق الوجوه، وتجفف الأرض، وتيبس الحياة...

– النار التي تعشش في صدرك والله لتكفي لإحراق فاس كاملة.

كركر مندوسا:

– كلا، تكفي لتحرق العالم.

مشى على حافة الصهريج المربع، الذي يتوسط فناء البناية التي لم تفقدها قلة النظافة روعةَ الفسيفساء المتسقة على الحيطان. في حجرة الميضأة الضيقة نظر إلى متاعه. قريباً سيتخلص من عضو أرّقه. سيدفن أشلاء علاقته مع ليلى إلى الأبد، لن يتحرك عضوه مجدداً ليرغمه على الاقتيات من أرحام الصبايا، لن يعشق مجدداً، ولن يلعق الشفاه ولا حلمات الأثداء... وستفقد الأجساد المتوارية خلف أثواب القطن والحرير سلطتها عليه، أما ملامح وجه ليلى الجميل، سحر عينيها السماويتين، بياض جسدها العاجي، فتفاصيل تمحق مع تمزق لواء الذكورة. ضربات محترفة بأداة حادة ستحسم الأمر، ثم يصير إلى

كائن جديد، لا هو بالذكر ولا بالأنثى.

تأمل عضوه، وجده منتفخاً، متصلباً، مندفعاً، وقد أيقظت حياة البلاط، بوفرتها، خمول مساربه وجوع مسالكه. انتصابه يذكره بعنجهية فيليب الثالث؛ طاغية الروم، وبهامات جند إسبانيا المتطاولة وهم يسوقون جحافل المورو إلى ميناء طريفة. بضعة جنود بكوا، اهتزت خواطرهم واضطربت قلوبهم رأفةً... كانوا قلةً، بعدد أوتار العود كما حسب.

تذكر كذلك خطاياه، ليلى التي راودها فأذعنت مقابل وعد كاذب بالزواج. لمّا انتفخ بطنها انقلب، فلم تجد بُدّاً من الزواج بقائد فرقة مشاة في جيش القشتاليين. قالت له متكئةً على كل حرف:

– لا تصلح لتكون زوجاً.

– لا أصلح لغير الهوى.

اليوم، في المساء تحديداً، سيكون عليه أن ينهي علاقته بهذا الكائن الأفعواني الذي يلذغ النساء في مكمنهن فيفرخ حكايات بائسة محكومة بهزيمة الأسلاف.

"لا أريد أطفالاً، ولن أخلف بؤساء يشبهونني"، غمغم في عبوره مجاز فناء الميضأة إلى الخارج. "وسأغني بصوت أعلى فأعلى؛ أنا مندوسا بلانكو، سأغني لا للخليفة ولا للسلطان، إنما للطاعون، أغني بفرح أعظم كلما حاز الوباء مدناً أكثر، وجنى خلقاً أعظم، أغني إلى أن يأتي يوم لا أجد فيه من أغني له".

لا تزال أبواب بعض الدكاكين مفتوحة. السلع على قلتها معروضة يحرسها في كل محل أكثر من رجل متحفز للقتال. يدرك مندوسا

بلانكو أن الوباء لم يتفش تماماً، وأن القادم هو الأجمل. قد يخفف منظر الجثث المترامية في الأزقة وعلى قارعة الطرقات، وفوهات القبور الجماعية، من الغصة التي جاء يحملها من إسبانيا. "لن أكون أقل هيبةً من كاليكولا، ولسوف أبني قصري من جماجم الفاسيين"، فكّر وهو يرفع رأسه إلى سماء عكرة تحفّها الشياطين.

الوباء يزحف في ثبات، والجوع يختبر آخر ما تبقى في المطامر والمخازن. منذ سنوات لم يدمع جفن السماء ولا حنّ قلب الأرض. بواكير الوباء بلغت في أنباء متقطعة، حلقت أشبه بطيور سوداء يدرك العارفون بأحوال هذه البلاد أنها ستصير إلى أسراب ترمي بدل الزريق الإسهال والجذام والجدري. حاولت العامة في فاس معالجة النذر الأولى للجائحة معتمدة أساليب مختلفة؛ بالدعاء حيناً، بالتجاهل حيناً آخر، وبالصمت أحياناً. مع بلوغ الحالات الأولى إلى أرباض فاس انتشر الهلع وتفشت رغبة في التدين، فامتلأت المساجد وأقيمت الصلوات ليلاً ونهاراً. صلوا كثيراً بينما كان الطاعون يمشي، جنباً إلى جنب، مع الجرذان، ويحلق مع البراغيث، رافعاً المزيد من الأعلام السوداء على نوافذ البيوت والشرفات. مسؤولو البلاط تعاطوا مع الوقائع بموضوعية أكثر؛ أوصوا الأطباء بإعداد ترياقٍ خاص للأمراء ورجال الدولة وأبنائهم، ثم اتخذوا قرارهم الأهم؛ افتحوا بوابة ربض الطاعون وارموا فيه المصابين والمشبوهين، ولا تنسوا المخرّبين، أولئك المتمردين الخارجين عن طاعة الله وأولي الأمر.

ظل ميندوسا بلانكو يرقب، في صبر وهدوء، منتظراً بشغف بالغ، ولأسابيع طويلة، تغلغل الوباء في دور المدينة، تنفث عبير زهور

الموت وهي تنتقل ببركاتها من بيتٍ إلى بيت، وحرص على تتبع التفاصيل، عن عدد الموتى المسجل في كل يوم، ونوعية الإصابات، ومقدار العذاب الذي يصيب المرضى قبيل حتفهم. سجل بمهارة إخباريّ كل شيء، ولم يتوان عن حضور المآتم والمشي في الجنائز. بكى أحياناً بين المفجوعين لفرط بهجته. كان من الرائع أن يعيش أحزاناً ساخنة. ليلاً حلم أكثر من مرة بنفسه يجلس إلى طاولة طعام يغمس الرغيف في دم فاتر.

صافح المخصيَّ الأسودَ الذي ينتظره أمام الباب الخارجي للميضأة مرةً أخرى، ثم سأله وهما يواصلان سبيلهما، يقصدان فاس الجديدة، عن شعوره يوم اقتلعوا شوكته من بين فخذيه. أشاح المخصي عنه وقد غامت عيناه، ثم حثّ الخطى:

– لا تكثر من مخالطة العامة وابتعد ما استطعت عن فاس البالي. لن يطول مكوثك في البلاط إذا ما بلغت أخبارك إلى الخليفة.

"ماذا سأفعل بعضوي المبتور؟ لو كانت ليلى في فاس لقدمته إليها تعويضاً عن خذلاني لها، ولأنها بعيدة، يفصلني عنها زواجُها وبحر الظلمات، فسيكون عليّ أن أعلقه، كقطعة قديد، تحت إفريز باب الدار". حرك رأسه متجاوباً مع ما ومض في ذهنه. فكر متمّماً ما لاح: "وسأكتب فوق عضوي المقدّد بلسانٍ عربي مبين: ماعون مقدّد للبيع". نظر إلى صاحبه الذي أوغل في عتمة ماضيه وقد انداحت مشاهد الوجوه القبيحة التي جرّدته من ذكورته في يوم بعيد. أضاف يكلم نفسه: "لِمَ لا، الزغبي باع غرناطة كاملة، أما أنا فلن أبيع غير ملكي؛ رزقي وأنا مولاه".

اجتازا بوابة القصر بعيد العصر، وعبْر الممر الرخامي الطويل ولجا إلى الباحة المترامية، حيث ما زالت نافورة خماسية الأضلاع تواصل دفق الماء، غير معنية بسنوات الجفاف. الأعمدة المزينة بتيجان الجس، الموصولة بحدوات مزخرفة، تنتصب كعبيد أوكل إليهم مراقبة الوافدين. أعمدة ترى، تسمع، وتسبر صدور الوافدين لتشي بالغادرين. فوق الأعمدة تتوالى الشرفات التي تعبّر بروعتها عن الشدة، حيث تصير الفخامة استكباراً، والرخاء استعلاء... أمّا السماء التي تُختزل في مستطيل أزرق بائس، فتصير إلى كائن متواضع، أقل شأناً مما هي عليه في الخارج. الأسوار العالية والبأس يُخضعان كل شيء، ولا يستثنيان أحداً، حتى السماء.

استمهله المخصي:

- تمهل يا صاحبي، وفّر ذكورتك ليوم تبغي فيه خلفاً فلا تجد له سبيلاً.

- للرعاع حِجر النساء ولنا الرقاب.

- والله إنك لتهذي.

- الهذيان مطيتي وغايتي يا أبله، فزم والزم، ولا تكثر، حتى لا تغضبني عليك، فتكون أول من أدق رقبته من خدم البلاط.

في غرفة الإخصاء كانوا في انتظاره بوجوه صلصالية؛ على منضدة صغيرة لمح أدوات جراحة؛ أنبوب معدني دقيق، لوح خشبي رفيع، ثم إناء من الحناء، وغير بعيد قدر يغلي بسائل ذي رائحة كريهة، فكر أنه القطران. دون وعي، كانت يده، عبر فتحة الجلباب، تداعب ثعباناً لا يعرف المصير الذي سيق إليه. طلب منه الخاصي أن يجلس في

هدوء ويستريح، طمأنه:

– لا تتهيّب، ستسير الأمور بيسر.

جوهر استمر يرقب في هدوء، أضاف الخاصي كمن يفضي بسرّ:

– عرفت الاسم الذي أطلقه عليك مولانا الخليفة؟

– لا.

– من اليوم اسمك سعد، وكنيتك السعدي. وإنه لشرف ما بعده شرف أن تنتسب إلى السعديين.

انتصب الخاصي، بدا بكرشه المنتفخة وردفه الثخين كامرأة حامل، يداه البيضاوان ووجهه الخالي من أثر زغب اللحية أثبتا لمندوسا بلانكو أن الخاصي مخصيّ بدوره. ألقى نظرة خاطفة على الوجوه، أمكنه أن يرتاح أكثر؛ كانوا كلهم جماعة من الخصيان.

في أحد الأجنحة الفاخرة للقصر، كانت الجارية جوهرة تمشط شعرها الفاحم بضيق، خلفها يقف الخليفة متأملاً إحدى حسنات الدهر... سألها مداعباً:

– ما الذي عكر صفوك اليوم يا كرز البلاط؟

– أطلت الغياب سِيدِي، لعلك تجد في الغلمان ما لا تجد في كرز البلاط؟

– أنت الخير كله.

سحبها إلى التخت. عرّاها تماماً، وقبل أن يلتحم معها، استحضر بشبقٍ متناهٍ، أنّ هناك في اللحظة نفسها، شاباً في مقتبل العمر يفقد رجولته إلى الأبد.

أغمض مندوسا عينيه، أمال رأسه إلى الخلف، ثم أخذ نفساً عميقاً

وقد باعد بين فخذيه. وقبل أن يشق المُخصي ببرودٍ كيسه، ليستلّ بيضتيه، قرع رئيس الخدم الباب:

- مندوسا، حبس المخازنية أخاك، أنأمرهم بإخلاء سبيله؟

- إنه سعد يا هذا. سعد السعدي.

- ارموا الخرا في أي جائحة. من اليوم المخزن هو أخي، هو أمي، لا ولاء لي لغير الخليفة والسلطان.

صرخ في وجه الخاصي آمراً:

- هيا، أسرع يا بغل.

وبدل أن يفتح كيس السفن أولاً ثم يستلّ البيضتين ثانياً، مدفوعاً بغضبه الذي انفجر بغتة، رفع مديته ثم قدّ عضوه من جذره ليسقط على الأرض كما تسقط رأس قدّت من أسفل عنقها.

٣

أسرج حصانه في الهزيع ميمماً شطر الجنوب. فُتِحت له بوّابة باب أبي الفتوح ليلاً مقابل حفنة دراهم من ذهب خالص، ثم رفا المسارب، متنكراً في زي الملثمين، يقصد مراكش. تمسك بصهوة حصانه كأمل أخير في النجاة ثم انغرس في خاصرة ليل بلا نور. يعرف الكثير عن أخبار السلطنة والدول، ويوقن أنهم إذا اعتزموا إهلاك أسرة أبادوها بكل من فيها. سنة أربعة وستين وتسع مائة فحسب، لما قتلت الأتراك بالسوس السلطانَ محمد الشيخ السعدي، أسرع خليفته القائد علي بن أبي بكر أزيكي بقتل أخيه أبي العباس وأولاده ذكوراً وإناثاً وصبيةً جميعاً خشيةَ أن يُخرِجَ أهلُ مراكشَ العباس ويبايعوه سلطاناً خلفاً لأخيه. الإبادة ديدن المخزن، ولسوف ينكلون بأهل بيته إذا استنكف السلطان عن ردع الخليفة الجامح، والزحف إلى فاس.

استرجع آخر الأحداث التي عرفتها فاس، وساءه أن يغفل هو، حاد البصيرة، ثاقب الذكاء، عن المغزى من مصرع الوزير إبراهيم السفياني على يد الخليفة، ودلالة تتريك الحاج عمرو الزرهوني الإدريسي. حتى الهدايا التي أراد لها أن ترفع اليد عن ماله، عكس ما

خمّن، جلبت له ازدراء العامة، وعجلت بخراب بيته. أدرك متأخراً أن شهية البلاط ازدادت مع أوقيات الفضة والذهب والعطايا التي قدّمها بسخاء. ما كان لهم أن يزهدوا في الكل مقابل البعض.

قال له الصراف الذي وفد ليلاً متنكراً في زيّ النساء:

– جاء الدور عليك يا حَسَن. ما حَسُنَ ما قدمت للمخزن ولا نفع في جلب رضاه عليك.

التزم حسن المقري الصمت وعلى لسانه طفح مذاق مُرّ. "جاء الدور عليك"، نزلت كضربة سيف؛ حادةً، سريعة، وكان له أن يرى أمعاءه مندلقة على الطنفسة. انهار على الأريكة فثار الصراف في وجهه:

– قم، إنها فرصتك الأخيرة يا هذا، ليس لك والله غير باب السلطان، إذا لم تصل مراكش أولاً وصلت السيوف أعناق ذريتك فقطعت نسلك وأنهت ذكرك...

استدار الصراف عاقداً يديه خلف ظهره. قال قبل أن يلف جسده بالإزار الأسود:

– بدخولي بيتك، وإن متنكراً، أكون قد وضعت حياتي وحياة أبنائك في كفة واحدة. أسرع يرحمك الله.

بدت مراكش بعيدةً كما هي النجاة، أبعد من مملكة سونكاي التي قوّض السعديون عمدها. نظر في عيني الصراف فوجده صلباً، واقفاً كالصاري، غير محتفل بهول الآتي، وعلى نحره لمح أثر ذبح من الوريد إلى الوريد، باغته دوار وإحساس بالغثيان. استغفر الله واعتزم على الاصطبار. سأل صاحبه يستجلي ما كمَنَ:

- جئت من أجلي أم لأجلك؟

- الفويسق لا يوفر أحداً. اليوم أنت ولا يدري أحد من تحط عليه يد اللئام غداً.

أضاف الصراف مستعجلاً:

- اسمع يا حسن، لقد كثرت قبائح المأمون، وترددت الشكاية به لأبيه، فاقصد دار السلطان، ولا توارِ في ابنه صغيرةً ولا كبيرة، قل له إن ولده قد أساء السيرة وأضرّ الرعية، فإما يرفع أذاه عن العباد أو تكن الفتنة لا قدر الله.

فكر في الوهلة الأولى أن يتحصن خلف أسوار قصره الصغير، يسلح رجاله بما معه من بنادق فيوغلون في دماء صعاليك المخزن، حتى إذا نفدت الذخيرة اشتبك الطرفان بالسيوف. سخر من نفسه توّاً، يعرف بني جلدته ويقدر ولاءهم للمنتصر وخضوعهم للأقوى، ستوجه فوهات بنادق رجاله إلى صدره، لا إلى العدو، وتتسابق في التصويب عليه ليتحول جسده إلى مزق قبل انطلاق المعركة. غمغم:

- لا أحد يقبل بخوض معارك خاسرة.

تدخل الصراف بانفعالٍ يبغي حفز المقري على النهوض:

- لا تهدر وقتاً ثميناً، تحرك، فإن لك في أحواز مراكش قبيلة تسندك، سر فإني أحسبك إن شاء الرحمن من المنتصرين.

حرك ابن المقري رأسه دلالة الموافقة وإن أبدى اعتراضه على ذكر قبيلة الرحامنة التي ذهب الوباء بريحها فلم يعد لها عند بلاط السلطان من شأن. أخرج الصراف من تحته رسالة من القاضي الشيخ محمد الفاسي المعروف بعدائه للخليفة وانحيازه للبسطاء.

- خذها، فإن للقاضي مكانةً في قلب سلطان مراكش وإن كرِهَهُ ابنه الذي استخلفه على فاس دون أن يكون أهلاً للسلطنة والحكم. استعن بها فرأي الفاسي محترم لدى النخبة من خاصة البلاط هناك، معتبر بين علماء مراكش وأهل الفتوى والبيان. مدها إليه علها تنفع في جلب المنفعة ودفع البلاء عنك وعنّا.

قضى حسن المقري ليلته الأولى في ضواحي مكناسة الزيتون، وأمضى بياض النهار كله في بطن وادي بوفكران اتقاء قطاع الطرق، ثم واصل سبيله مع المغيب ولم يتوقف إلا وهو على مشارف بلاد مواتة من وادي أم الربيع. قضى النهار يلعق جرحه الطري واستأنف السبل الغبراء إلى بسائط الرحامنة التي يعود أصله إليها، ففيها ولد وتربى يتيماً إلى أن قرر شيخه وولي نعمته بعثه مع قافلة تجارة وحجيج إلى جامع القرويين بغية تتميم دراسته.

راعه في بلاد الرحامنة هول الخراب لِما ألمّ بها من جوائح. كان القحط والوباء، كما بلغهم تماماً، قد استحكما فأهلكا النسل والحرث. ما مرّ بجانب بيت إلا وألفه قفراً خالياً. بكى على ديار كانت، إلى عهد قريب، عامرةً وصاحبة دوحة. بلاد ما كانت نيران مواقدها تخبو تحت كوانينها لا في الليل ولا في النهار.

في بلاط فاس كان الخليفة قد استشاط غضباً لفرار المقري. ألقى قدح النبيذ على قائد الحرس أمام الخاصة من بطانته. بصق في وجهه ثم أمر رجاله بتجريده من الزيّ المخزني. قال لخادم الأمس المطيع:

- الكسوة لمن يستحقها يا بغل.

- سِيدِي، لستُ...

ألزمه الصمت بحركة من يده:

- وماذا يصنع رجالك على بوابات المدينة؟ لعلهم يحصون القطط والجرذان.

عب النبيذ في جرعةً واحدة ثم رماه بالقدح. تابع:

- أعطيكم من خزينة الدولة لتكونوا عينها التي لا تنام ويدها التي لا تكل، أما أن يمرّ خائن في سلام فذلك أمر مشين. والله لأنكل بك، ولتكن عبرةً لكل ذي لبٍّ.

احتقن وجه قائد الحرس، امتلأ صدره غلًّا على من خدمه بتفان واستمات في تحصين ثغوره. تمنى لو كان بمقدوره أن ينازل خليفةً متغطرساً ويصرعه كما فعل مع آخرين لم يكونوا في مثل مكانة الخليفة. ابتلع ريقه في أتون انزلاقه إلى مصيره البائس ولم يجد غير وخز سيده أمام بطانته:

- لا أثر للقطط يا ومولاي. أكلتها العامة كلها من شدة الجوع. وهل تركتم للرعية ما تسدّ به رمقها؟ لا بد أن تأكل الناس بعضها البعض بعد حين.

رأى الخليفة في رد القائد المعزول تطاولاً وسفوراً فعالج الموقف بما يلزم من حسم:

- دقوا عنقه أمام العامة بعد الظهر وألقوا جيفته للكلاب، أما رأسه فتعلق على مدخل باب الفتوح، مقطوع اللسان مسمول العينين.

التقم رجال متحفزون قائدَ الحرس، كما تلتقم كلاب جائعة قطعة لحم، أكرموه بلكمات سريعة خلطت سريعاً خرائط وجهه ببعض، ثم جرّوه من قدميه. بدا الخليفة راضياً على الطريقة التي عالج بها

رجاله قائد الحرس. استنشق الهواء ملء رئتيه، ثم انقلب إلى قائد الحرس الجديد وقد طويت صفحة رجل كان له الفضل في بقائه آمناً في قصره.

- كلف رجالاً أشداء بتعقب المسمّى حسن المقري، لا بد أن يدركوه، قبل بلوغه مراكش. قل لهم إما ترجعون به أو تضرب رقاب أهلكم هنا.

نهض الحارس على الفور ليلبي فاستوقفه:

- أريده حيّاً. الموت لمثل هؤلاء رحمة.

التفت إلى كاتبه وأمين سره ليتمم مسعاه:

- أما أنت فاكتب إلى حضرة والدنا السلطان حفظه الله.

تلا ناظراً إلى القبة العالية التي تتوسط القاعة الواسعة. الأعمدة الرخامية بدت في عيون بطانته كأقدام راسخة على الأرض لا يمكن أن تميد. غمس الكاتب الريشة في المدواة ثم تعلقت نظراته بسيد لا يرحم.

"إلى والدنا الأجل، الأعز، الأكرم، الأمجد، الأسعد، وصل الله عافيتكم، وبلغكم منتهى مسعاكم، وبمنّه أتم مبتغاكم، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد، فكتابنا هذا إليكم من حضرة فاس حاطها الله، ولا جديد إلا ما قدر مولانا، لله الحمد ولله المنة، هذا والذي أبلغه إليكم أسعدكم الله وكلأكم، أنه بلغ إلى علمنا أن أحد المارقين من أبناء رعيتنا قد فض ولاءه لنا، وخرج عن طوعنا، متنكراً لعطايانا وأفضالنا عليه وعلى بنيه، فإذا بلغكم عدو الله وعدوكم، المسمّى حسن المقري، المعروف

بموالاته للترك قبح الله سعيهم وفرق جمعهم، فشدوه وأوثقوه ثم أعيدوه إلى حضرتنا في فاس على يد رجالنا الأمناء. أرسلوه لنا حيّاً نضرب به المثل، فيكن عبرةً لمن يعتبر، ومثالاً لمن يمتثل، ندق عنقه أمام الحشود فيخمد بدمه دابر الفتنة، وتسكن النفوس النفرة، وترجع إلى الصواب العقول المريضة، والفتنة نائمة لعن الله موقظها...".

ملبياً نداءً داخلياً، أقوى من غريزة الحذر والاحتراز، قصد المقري بيته القديم، لم يكن بمقدوره أن يمرّ من على أرضه ولا يزور البيت الذي ولد فيه. قد يحبسه السلطان أو يستبيح دمه، فلا تتأتى له رؤية شجرة الزيتون التي غرستها أمه يوم عقيقته، والتي حفظ تحتها أشعار المتنبي وأبي نواس، والبئر التي كان يرتوي منها ويروي بمائها قبر والده. قد يخسر أملاكه ويفقد أولاده بعد سفره هذا إلى حضرة مراكش، لكنه سيربح تحقيق حلم داعب أجفانه مذ كان في الخامسة عشرة من عمره. أطياف من الماضي لاحت في الأفق، أصوات الصبية وهم يتراكضون إلى الجامع متأبطين لوحاتهم، ووجه والدته الحازم وهي تنفث في صدره القوة والعزم: "هيا يا بضعاً مني وبقيةً من أبيك، اذهب إلى الدرس، فإن لك يوماً أفضل من هذا، على أرض أبرّ من هذه".

"يا لقِصَرِ الحياة"، قال وهو يربط حصانه في جذع شجرة الزيتون. مرّ عبر فتحةٍ في جدار الصّبار الذي يعزل البيت عن المحيط. كم رأى أيام الصبا في شجيرات الصبار حراساً أوفياء، حتى في أحلامه دأب المعتدون على السقوط صرعى أشواكها التي لا ترحم. اليوم تحولت إلى نباتات يابسة فقدت كامل بأسها.

وجد البئر مغمورة بالحجارة والتراب، وسقف البيت منهاراً والنوافذ مكسورة. "مات كل شيءٍ مع موت الصبار"، غمغم متماهياً مع ماضي الطفل الذي كانه. واصل بين ركام البيت وأنقاض الذاكرة، وفي الغرفة التي ولد فيها، بين الجدران التي فتح عينيه عليها، تناهى إليه صوت أمه عذباً يهدهده في فراش نومه: "نيني يا مومو، حتى يطيب عشانا، وإيلا ما طاب عشانا، يطيب عشا جيرانا". ردد الكلمات نفسها، تغنى بها وسط الخراب، كعَلَم منكس تأرجح رأسه يمنة ويسرة مع رياح الماضي. غاب، سرح في مُروج ذاكرته متمنطقاً حلاوة رائحة الأرض... غاص قبل أن يعيده صهيل الحصان الذي جاء كصراخ في جوف بئر خاوية. حلقت غربان بعيداً على وقع جلبة رجال مندفعين، أما حسن المقري فلبد في المكان ذاته حيث كان ينكمش على نفسه كلما أحسّ بقهر الناس وجور الزمن.

٤

ذهب زعيق عساكر المخزن أدراجَ الريح وسط هياج الحشد الذي تغذى بأفواج جديدة بلغها أن عميلاً للترك تم ضبطه في حواري فاس البالي، فجاءت لتعبّر عن ولائها للخليفة والسلطان. التمت أعداد متزايدة من الخلق، كما يلتم الذباب على جرح تعفن، وتراصفت قلوبها كما تتراصف الحجارة الصقيلة التي تعبّد أزقة المدينة والدروب.

لهذه الكائنات الضامرة، التي تشبه أفواهها فروج البغايا، أعين الصقور، حاسة شم لا تخطئ الدم أبداً، تأتي من بعيد لتنتف بمناقيرها قطعة صغيرة، وتعود مساء لتطعم أبناءها بحكايات طريفة. لما تخلو بنفسها، وقد أخمدت لهب فوانيسها، تستغفر الله موليةً وجهها شطر القبلة، حالمة بجنات ونعيم...

لمّا سحبوه من على حدوة الباب والتقمته الأيدي بلهفة، بدت له البوابة، بضخامتها واتساعها، كفم وحشٍ أسطوري في جوفه مئات الوحوش الصغيرة التي ترتدي جلابيب بيضاء وعمائم صفراء. رآها تغلي متعطشةً لدمه، تفور لهفةً وحماسةً. في بطن الوحش عالم

مظلم، لزج، وإحساس فاحش بالقهر. حيث لا هواء ولا ضوء، يمكن للمرء أن ينفصل عن أحزانه الطرية، يُغمض عينيه ويطلق الزمان والمكان، ثم ينكفئ على نفسه لتكون الجدار الأخير الذي يبعده عن عالم موبوء.

وهو يرحل من ميناء طريفة في العدوة العليا، حلم بأرضٍ سخية تحتضنه، ورجال شداد يعينونه على العودة مظفراً إلى وطن خَرج منه ذليلاً. فكر أوان التهجير، ومفتاح بيت والده في جيبه، أن الرجوع أمر محسوم. حط في أرض المغارب فلم يجد غير الأباطح سائلةً بأعناق الجياد، وأفواه الشعاب تقذف الجيوش من الأودية قذف الرماح في بطون المحاربين، وعبر السواقي الراسخة، التي حفرتها الأيادي السمراء، يتدفق الدم ليسقي أرضاً لا ترتوي من دماء أبنائها. نأى بنفسه عن شؤون السلطنة والحكم واشتغل حمالاً في سوق الدباغة وسائساً يبيت في إسطبلات الفنادق، قبل أن يقرر في صبيحة اليوم، وبلا مقدمات، وهو ممدد على الحصير يرقب عبر نافذة من الطابق الأول سماءً بعيدةً وغير مبالية، أن يتحوّل إلى موسيقي. لديه العود والجنون الكافي. سيتنقل من بلدة إلى بلدة، ثم من بلد إلى بلد، وطنه الأرض، وملهمه المآسي والسبل، كبلبل سيغرد أينما حط، وليداوي حرقة الوطن الواحد بالأوطان الكثيرة المبثوثة على امتداد المعمور. اعتزم على المضي، غير أن المخبوء، المستتر في الطيات جاءه، دون مقدمات كذلك، على لسان جار بغيض زفّ له النبأ المشؤوم، فحالَ بينه وبين آخر أمنياتٍ كانت على وشك.

صرخ مخزني في أذن القائد:

– هذا الكلب من عائلة مندوسا بلانكو؛ خادم مولانا الخليفة.

لم يتردد القائد، أطلق رصاصاتٍ في الهواء ثم علق على الخبر:

– لا بد أن يندلق شيء من الزبادي والعسل في ساحة أبي الفتوح.

حرك العسكري رأسه متجاوباً. يعرف جيداً جدية قوّادٍ أطلق الخليفة يدهم في الرعية.

دوت فرقعة الرصاص فأدبر الشغوفون تاركين جسداً منهوشاً والكثير من النعال والبلاغي... لم يتخلف غير عبد المنعم بهلول، الشابُّ الفارّ من مارستان المجانين قبل أيام... لكن فوهات البنادق لا تستثني أحداً. عالجه القائد برصاصة في الصدر وأخرى استقرت بين حاجبيه. سقط عبد المنعم بفم مفتوح فرت عبره روحه المرتاعة بعيداً عن برية الظلمات.

– لا يزال حيّاً.

صرخ المخزني الذي جس نبض أحمد بلانكو.

– القطط بسبعة أرواح.

رد القائد باحثاً، بعيني صقر، عن طريدة لم تسعفها قدماها بالابتعاد.

مرّت العربة، التي أقلت أحمد بلانكو، بين دروبٍ كثيرة. مضت باختيال يجللها اللون الأسود، وتلك المسحة من الخوف التي تخلف في الصدور، وهي مارة بعتبات البيوت، الرعشة والبرود. الصّغارُ يتدثرون على حصائر من دوم مستحضرين صور غيلان يسوقون العربة إلى الجحيم، أمّا الكبار فيدركون تمام الإدراك غاية مقصدها، مثلما يعرفون أن الذي في داخلها تحول إلى شبح فور سقوطه في

بطنها. لا بد أن يحلق قريباً فوق أسطح المدينة بروح حاقدة بغية الانتقام من الجناة.

ستتوقف العربة حيناً على عتبة باب المارستان ثم تستأنف سبيلها على الطرقات المعبدة بالحجارة لتعود للوقوف أمام دار القاضي الذي ألف أن يكون رحيماً بسائسها، لن يستبقيه غير دقائقَ لتواصل العربة مسارها، الذي يشبه قدراً محتوماً، إلى ربض الطاعون، حيث ترتفع أسوار عالية تحيط برحى تطحن الوافدين. أبطأت الخيول. تعرف مكان وصولها جيداً، وهي التي تقود سائسيها الجدد وترسم لهم سبلها إلى هلاك زبائنها. "هَاوُو"، قال السائس معلناً وصول البضاعة بصوت هادئ لا شائبة فيه. تئن أضلاع الباب ترحيباً بالوافد، فتتحرك الخيول إلى غاية العتبة، حيث تفرغ حمولتها وتولي مدبرةً في عتمات الأزقة، تتبعها الهالة السوداء وأرواح المعذبين.

تمكن أحمد بلانكو أخيراً من فتح عينيه. عبر فجوات أضلاع العربة تطلع إلى السماء. آلمته الجروح والكدمات التي خلفتها الأيادي البائسة، غير أنه كان مرتاحاً إلى مدى بعيد، حتى السماء لم تكن هي نفسها، صارت أنقى مما كانت عليه، أخف، تطير فيها السحب متخففة من إحساسها بالذنب تجاه من تعلقت قلوبهم بالغيث.

فتح السائس دفة العربة ذات العجلتين متحفزاً، أمال العربة إلى الأسفل فتدحرج أحمد بلانكو إلى الأرض كحزمةٍ من أعواد جافة. دفعه بقدمه اليمنى ليتأتى له إغلاق باب العربة وإعادة رفعها إلى المستوى الذي كانت عليه. دون أن يلتفت إلى "الخراء" المكوم

على الأرض، صعد إلى كرسيه، فأدبرت الخيول في عتمات المدينة تتبعها الهالة نفسها.

اعتاد منذر سراج منذ زمن على قيادة الناس إلى حتفهم كما يقود الزبالون القمائمَ إلى مكب النفايات. "لا مكان لهذه النفايات على سطح الأرض، سكناها المنافي والقبور"، فكر مراراً وهو يمضي على عربته، من ساحات الموت التي تتغذى من لحم زبائنه، إلى بيته في فاس البالي. لم يعد الدم، منذ سنوات خلت، قادراً على تحريك عواطفه. سار على نهج تعاليم عرابه الراسخة: "لا ينبغي للجزار أن يتعاطف مع ذبيحته، ولا للجلاد أن يرأف بضحيته، ولا للسلطان برعيته". وكان آخر عهده بعاطفته كإنسان يوم ساق والده إلى ساحة الإعدام. قيل له كن رجلاً ولا تلتفت إلى الخلف، اضبط أعصابك، كي لا يضرب عنقك، وعنق أبيك، في ميقاتٍ واحد. تفوق على كلماتهم وفاق توقعاتهم وهو يبصق في وجه والده قبل أن يحملوه مكبلاً إلى المنصة ليفصلوا رأسه عن جسده أمام آلاف المتفرجين.

رفع عبدان أسودان أحمد مربوطاً على لوح من خشب الجوخ، اجتازا عتبة البوابة إلى داخل ربض الطاعون. الأمتار الأولى مرصفة على غرار الطريق بحجر صقيل، تنتهي الحجارة فتبتدئ الأرض الترابية والحجارة الناتئة كأضراس مكسورة. نظر العبدان في عيني بعضهما، سيراً على مألوف عادتهما، ثم أسقطاه على الأرض من علو كتفيهما. سحبا اللوح، فكّا الرباط ثم عادا إلى البوابة، أيديهما مرتخية تكاد تلامس ركبهما، ظهراهما مقوسان، يتقدمهما رأسان محنيان.

٥

استفاقت زهرة المقري مفزوعة على وقع صوت أخيها العالي. صرختْ في وجهه محتجّةً لاقتحامِه خُلوتها على غير العادة في تقاليد عائلة المقري التي لا تشبه عادات أهل فاس في شيء.

– أجننتَ يا حامد؟

ردّ بعينين مغموستين في كمد عاصف:

– على وشك الجنون يا زهرة، على وشك... على وشك...

جلس على طرف السرير بوجه طفل مهموم. انتابه لأول مرة، في حياة لم تلدغه من قبل، إحساس بالغرق. باتت الأشياء بعيدةً، متمنعةً، حتى الستائر الحريرية المنسدلة على نافذة ذات إطارات مذهبة صارت من الماضي. لفت شعرها في منديلها الأبيض، المنسوج من الصوف الناعم، واستوت بذات شموخها المعتاد، يساورها الشك في خطب عظيم:

– ماذا جرى؟ أفزعتني يا حامد

– ضعنا يا زهرة، بربّ المشارق والمغارب ضعنا.

ثم بكى كطفل، ودت زهرة أن تستوضح غير أن مشهد البكاء

ألزمها الصمت. فكرتْ أن المحنة التي طرقت بابهم ليلاً لا بد أن تكون من القوة بحيث تعيد رسم خرائط عالمهم من جديد. تعلمت منذ يفاعتها، على عكس حامد، أنّ كل شيء حولها هشّ، ولا شيء يستطيع أن يصمد طويلاً، لا ثبات على أرض تمور، حتى الأمراء والملوك يصيرون في بضع لحظات إلى هوام.

ارتفع صوت المؤذن، انفجرت كلماته في صمت الليل ثم تلتها الأصوات الآتية من مآذن أبعد. كانوا كأنما يتسابقون، تزاحمت أصواتهم في جوف الليل ثم تلاشت ليعود الصمت أحداً. حامد استشعر في الآذان بعض الهدوء، تذكر أنّ الحياة فانية، وأنّ عمر الظلم قصير كما يردد والده على الدوام. مسح دموعه، لمّا التفتَ إلى زهرة وجدها في الشرفة تظل على مدينة تغوص في جراحها.

– الآذان ولا فجر. لا فجر قريباً يا حامد. أليس كذلك؟

فاس كبركة من قطران ترسو على تخوم الأرض محاذية بحر الظلمات، وصمتها الذي يسكن الأزقة الضيقة والساحات وصدور الناس، الذي يعمر كل شبر، صمت ملعون، قوامه الخوف والركون إلى الاستسلام.

– لا فجر يا زهرة في كنف المخزن.

استعادت الحوار الذي دار بين أفراد الأسرة أمس عن الرحيل إلى مدينة تطاوين. كانت أمها فاتحة الإدريسي الأشد تحمساً للرحيل. أعلنت موقفها بوضوح:

– نغلق أبواب قصرنا ونوكل شؤون التجارة للصراف ثم نرحل إلى تطاوين، لنا فيها أهل وتجارة ومعارف. حتى الطاعون أقل فتكاً

هناك. لا بد أن تكون الحياة أفضل.

كانوا جميعهم على علم برغبة فاتحة الإدريسي في زيارة أرض مولدها ولقاء أهلها الذين ما رأتهم مذ رحلت مع زوجها إلى فاس. مات والداها ولم ترهما، ما تبقى قليل، لكنه يستحق السفر. أجاب المقري على طريقته التي تمزج الجد بالهزل:

– أخشى أن يفكر أهلك في تطاوين بالسفر إلينا فراراً مما لديهم هناك فتفوتك فرصة اللقاء بهم هنا.

استعاد صوته جديته دون أن يتخلى عن مسحة التفاؤل التي ما فارقته منذ زواجه بفاتحة:

– نحن أكثر سعةً وحظاً يا فاتحة، نقاوم هنا، بفضلٍ من الرحمن، عسر الحال. يمضي الضيق وتعود فاس إلى نفسها والرخاء إلى دربنا. أليست خزائن المؤونة عندنا بخير؟ ألم نختبرها أول أمس فألفيناها وافرةً لم يمسسها قُبْحٌ؟ ثمة من الذرة والشعير ما يكفينا حولين كاملين، وزيت وسمن وفاكهة مجففة تطعم رهطاً من الرعاع. ثم إن المحَل ليست بالأمر الجديد، أدركتنا من قبلها جوائح أشد ولم يلحقنا بفضل من الله سوء.

زاد على قوله ضاحكاً ليبدد ما وقر في صدر أولاده من أسى:

– وفي الحوزة ذخيرةٌ من الرصاص تكفي لسحق كل رجال المخزن.

استعاذت فاتحة بالله:

– أبعد الله عنا أولاد الحرام.

– ليس رجال المخزن غير هشيم. شرارة واحدة تذهب بريحهم

فلا نجد بعد كل البأس غير الرماد.

قال حامد بثقة وقد رأى من أبيه على مد سنوات عمره ما يجعله على إيمان بقدرته على دفع الطامعين. زهرة، على خلافهم، فكرت في مبعوثة قصر الخلافة إليها قبل أسبوع. كان عرض الزواج ملعوناً، لأنه، كما خمنت، السبيل الألطف لاستحواذ الخليفة على ثروة أبيها.

قالت لها سلمى بما يستبطن الوعيد:

– إن في دخولك قصر الخلافة حصانةً لأبيك من غدر الزمن، فلا تكابري.

امتعضت زهرة المقري ثم أشاحت عنها بوجهها.

– كلا والله ما يلمسني رجل عقله في فروج النساء. ابحثي له عن أخرى غيري يمتطي...

قاطعتها المرسولة:

– الخليفة يأخذ ولا يطلب، خير لك أن تأتي راغبةً، وتدخلي البلاط سيدةً، من أن تدخليه أَمَةً ذليلةً.

– قولي له.

قاطعتها مرة أخرى:

– صوني لسانك يا بنت يحفظك.

غادرت سلمى دون أن تكمل شايها. "حرام"، قالت وهي تودع فاتحة الإدريسي في ما يشبه الوعيد. فهمت كل من البنت ووالدتها مغزى نظرتها ودلالة حركة رأسها، لكنهما لزمتا الصمت، لعل الصمت يصرف عنهما المكتوب.

ودت زهرة المقري أن تدعم طرح والدتها بالسفر إلى مدينة

تطاوين، سيصعب على الخليفة أن يمد يده إليها ليأتي بها من بعيد، غير أن مقترح أمها تراجع أمام رأي أبيها وجعجعة أخيها.

أعادها والدها إلى الحديث. سألها:

– ما رأيك يا قرة عين؟

– الطاعون هو المخزن يا أبي.

كركر حسن صافقاً يداً بيد:

– المخزن هنا وهناك، وحيث لا وجود له يعيث الأعراب فساداً.

تدخل أحمد مبدياً تماسكاً وبأساً. قال بعزم ويقين:

– إذا كان لا بد من الموت، بالطاعون أو بغيره، فلنمت في ديارنا.

"أين اختفت بسالتك يا رجل البيت بعد أبيك؟" قالت زهرة في نفسها مستهجنةً انهيار أخيها السريع. تحركت دفقات ريح، أمكنها أن تلحظ تراجع السواد. لم يسبق لها أن وقفت في الشرفة في مثل ذلك الوقت ولا خالجها الإحساس ذاته؛ تلك الهالات الزرقاء الفاقعة تعد بمستقبل زائف؛ تبيع الوهم. نظرت في عيني أخٍ كان في جاجة إليها أكثر مما هي في حاجة إليه:

– هل طلبني الخليفة للزواج من أبي؟

ضحك بمرارة:

– لن يضمك وحدك يا زهرة، سيضع يده على ما يشاء مما في حوزة المقري. لقد تركنا المخزن.

٦

توقفت الخيزرانة الهرمة بغتةً، بالضبط كما يقف ثعلب عجوز اشتم رائحة بقايا جيفة. لم تشوش تركيزَها الجنائزُ التي مرت تباعاً تحمل توابيت صلوا على صرعاها ظهْراً في المسجد الكبير. الموت طقس اعتيادي، أكثر رتابة في زمن المحل مما هو عليه في زمن اليسر والرخاء.

اطمأنت العجوز لمرور المواكب، التفتت يمنةً ويسرةً، ثم دنت ببطء من عتبة باب البيت. مسافة الخمسة أمتار تتطلب منها وقتاً وجهداً معتبرين. "يا الله"، قالت وهي ترفع رأسها برغبة يشوبها حذر. غمغمتْ غير مصدقة: "قطعة قديد في زمن الفاقة". فركت عينيها لتتأكد مما رأت، ثم مدت يدها لتلامس بأطراف أصابعها القطعة المبجلة. أخذت نفساً عميقاً: "بركاتك يا رب". قصعة من الكسكس بقطعة لحم مقددة كانت أكبر أحلامها. انتبهت للكلمات المرسومة فوقها: "متاع مقدد، بالهناء". ابتلعت ريقها. "القديد هو القديد حتى لو قُدّ من شرج باغية"، رددت في إصرار.

ابتلعت ريقها ثم عادت لتمسح المكان؛ الزقاق خالٍ، الشرفات فارغة، والسماء قاحلة، صحراء مقفرة، شبيهة بإنسان منزوع الذاكرة.

انتزعت القطعة بخفة الصبايا: "لا شيء يستحق التفكير مرتين"، ثم مضت يدفعها خوفها من يد غادرة تحط فوق كتفها لتصادر متعةً جاد بها الزمن على غير انتظار.

سقط المساء صريعاً كأحلام بؤساء فاس بموسم مطير، وانكمشت الشمس في الأفق مثل رضيع أنهكه الجوع والبكاء، وارتمى ما تبقى من وهج في وحل المغيب.

أغلقت باب كوخِها، لن تدخر جهداً في الاحتفاء بليلة القديد، فثمة نصف رطل من السميد جلبته لها إحدى تلميذاتها، قبل شهور، اعترافاً لها بما قدمت لها من فنون السرير. "لولاك لما دخلت قصر الخليفة وعاشرت كبار رجال المخزن"، قالت وهي تمد لها قفة ذات خير وفير. ليتر من الزيت، رطل من السميد، وقليل من السمن أثمن من ثلاثة رجال شداد... خمنت العجوز. انحنت المريدة، قبلت يد معلمتها، ثم عادت في عربة خاصة يجرها حصانان أدهمان لتواصل رسالة سيدتها.

رتبت كوخها كما ينبغي لجلال قطعة القديد، أسرجت قنديلها الأثير الذي يعود إلى زمن مجدها البائد، ثم شرعت بهمة وشغف، متناسية آلام الشيخوخة، ورائحة الماء العدم، الذي يسيل بين الأكواخ، شحيحاً، برائحة سخية، في ساقية سوداء، تشطر الدرب نصفين، في إعداد وجبتها...

في جناحه الخاص تمدد سعد السعدي منتشياً بتماثله السريع للشفاء، والمكانة الأثيرة التي حظي بها في قصر الخلافة مستفيداً من انتسابه للموركسيين. شعر للمرة الأولى أن هويته الأندلسية عادت عليه بشيء من النفع. ترك باب الشرفة مفتوحاً، هواء الليلة أكثر مرحاً كما

خمن، حتى الستائر رقصت على إيقاع ميلاد جديد. تحسّس المخدة المحشوة بريش النعام، جال ببصره في الغرفة ذات الجدران العالية، تأمل السقف المزين بخشب الأرز الفواح، الثريا المتدلية كعنقود عنب. ارتخى... القنطرة القصيرة التي مرّ عليها من اليقظة إلى النوم كانت معتمةً، غارقةً في الضباب...

– باعد بين فخذيك. قالت له.

– لمَ؟ أجابها بتقزز.

– إنها أوامر الخليفة يا مندوسا...

لا يعرفها تماماً، بالكاد يتذكر أن هذا الوجه القبيح قد مرّ يوماً ما بجوار باب بيت الإيجار. ابتلع ريقه، فأوامر الخليفة كالقدر لا ترد. هزت رأسها وقد أفلحت في قراءة أفكاره كما حسب. أردفت كمن تشجع طفلاً:

– جيد، حسن، واصل يا فحل...

فتحت فمها. في داخل الفم رأى ظلاماً كثيفاً وحقداً على كل الذكور الذين رفسوا جسدها ثم تنكروا لعطاياها. داعبت شيئه بلسانها وقبل أن يتذكر أنه قد أخصي فعلا قبل أسابيع، وأن اسمه لم يعد مندوسا، رأى فمها الشبيه بفم أفعى ينتزع عضوه من بين فخديه. صرخ عالياً، وعبر القنطرة الأولى ذاتها، في غبش الاستيقاظ، فتح عينيه على هدير عاصفة...

ابتلعت الخيزرانة العجوز قطعة القديد بشره، وعينين جاحظتين، على وقع فرقعة الرعد، ثم قصدت، بعناء، نافذة كوخها. "من غير المعقول أن ينهمر المطر"، فكرت. الذين كان لهم أن يتابعوا المشهد من بدايته لمحوا من بعيد وميض البرق فتهللت وجوههم لبشائر مخاض مُرّ. تقافزوا فرحاً، تعانقوا مع الزخات الأولى، ثم هتفوا بإيمان "يا

مغيث، يا مجيب الدعاء". كان لوقع هدير الرعد في صدورهم طعم خاص، جاء كخلاص. "يا ألله"، صرخت الخيزرانة غير مصدقة ارتطام رذاذ المطر بوجهها. دفعت يدها عبر النافذة، دستها في غور الظلام. بدت اليد النحيلة، مع وميض البرق، كلسان أفعى. بسطتها، أمالتها، ثم انتزعتها وقد بلغت المراد:

– مطرد غادر يا أولاد الكلب.

سقط المطر غزيراً، تقيأت السماء غضب الناس عليها، وعصفت الريح هوجاء. سريعاً أغلق المتطلعون بفرح إلى المطر نوافذهم، وبدل فرحة المولود تفتق الخوف.

– "ولادة مجهضة يا مجانين فاس"، قال سعد السعدي وهو منتصب في شرفة الغرفة. رأى في الغيوم شياطين صغيرة تشوي سكان المدينة. شياطين صديقة، متحالفة مع أحلامه؛ لا تمطر إلا لتقتل. تنفس بارتياح متخلصاً من الوجه القبيح الذي نغّص عليه نومه، ثم تنشق هواء العاصفة. اختلط هدير الرعد بضوء البرق والمطر الذي نفد عبر برنسه إلى صدره، وفي فوضى الأفكار لاح وجه أخيه، رآه رضيعاً محمولاً في حضن أمّ غاضبة على ولدها البكر. صرخ مع هدير العاصفة:

– لست أنا يا أمي من باع غرناطة ولا من نكل بالموريسكيين...

– أدبر إلى الداخل، أغلق باب الشرفة، شعر بالألم يتصاعد من بين فخذيه، قام إلى السرير، ارتمى، وعبر عشرات القناطر الصغيرة زحفت إليه أفكار سوداء. بكى بإحساس عميق بالقهر:

– الكل عدو يا أمي، وما بقي شيء يستحق أن تحزني عليه... إلى الجحيم...

٧

استرجع في بضع لحظات ماضيه كاملاً، تأمل زوايا المكان والأبعاد، وأمكنه أن يزيل الأنقاض وينفض الغبار ويبعث صورة البيت القديم على خلقته الأولى. كادت أمه رقية أن تأتيه بصينية الشاي والحلوى. "أنت رجل البيت يا عيني"، ألفت أن تقول له وقد تربعت على الحصير المجدول من الدوم، متوسدةً مخدة الحَلفاء، متملية معالم رجولة تروم النضوج قبل الأوان. "تشبه أباك، والله تشبه أباك"، تتفرس في وجهه، تتبع حركاته وهو يحاول الفرار خجلاً من إطرائها. تمتم: "كانت أمّاً رائعةً، لكن الزمن...".

– أرنا وجهك يا ذا البرنس الفاخر.

رفع رأسه. خالجه إحساس ممض بدنو النهاية. رائحة الخراب، ريح الشّركي التي تناكف بقايا حصير دوم ترتعش أطرافه كارتعاش أصابع عجوز يحتضر، وذلك الفراغ المهيب الذي يغمر القفر والروح. انطوى كورقة بردى بالية قبل أن يدوي صوت قائد زمرة قطاع الطرق غارساً أنفه في السماء.

– انهض.

قام حسن المقري مذعناً، نظر إلى الوجوه التي ترى فيه طريدة ضلت سبيلها. يعرف هذه الملامح جيداً. "لا بد أن يكونوا من أعراب الشبانات". حرك رأسه مستسلماً لمآل حاله وقد أيقن من سوء المصير. حيّاهم بودّ فتغامزوا.

- نعجة تاهت في سهول الرحامنة.
- دجاجة سمينة في ساعة جوع.
- ومن أين لك بحصان قوي في زمن قحط؟

رفع القائد يده إلى أعلى فلزموا الصمت، أخفض أنفه قليلاً. بصق، ثم أشار إلى أحد رجاله أن يتقدم. يعرف الرجل عمله جيداً؛ يفتش الرهينة بدقة، يلقي تحت قدميها كل ما عثر عليه مع تسمية المنهوبات بصوت جهوري، قبل أن يشرع في نزع الثياب أخيراً إن كانت ذات قيمة، ثم يكون له أن يجني عنقاً إضافية في سلة تضخمت في زمن السيبة.

لم يقاوم المقري الرجل الذي ابتهج بعثوره على كيس من الدنانير الذهبية، كما لم يستجدِ خلاصه. علمته التجارب، والأخبار المتواترة عن قطاع الطرق، أن لا يعاند كي لا يُنكّلَ به، ولا يستعطف حتى لا يُذلّ. تأسّف على مصير زهرة، رآها بين أحضان الخليفة، وتحسر على حامد، حرام أن يُستعبد أولاده وقد قضى عمره في تأمين حياة لائقة لهم. ابتأس، غير أنه كان راضياً تماماً على مسيرة إنسان يتيم لم يعترف بصعب ولم يلن أمام شدة.

في الحياة التي عاشها حسن المقري شيء من عدل رغم قسوتها، أكرمته بعد شح، وقوته بعد ضعف، "وها هي تخيط لي النهاية في

مكان مولدي". رفع رأسه إلى أعلى، سرح... هكذا تمنى أن يموت مذ كان صغيراً. في الأفق بضع سحابات هشة تتمزق، تختفي. "الحياة مجرد وهم"، تمتم استعداداً للفراق.

صرخ الرجل متحفزاً وقد استل سيفه:

– هيا، مد عنقك لأريحك من الأرض، وأريحك منها.

– مهلاً يا حَذُو.

جاء صوت يابس من خلف، ارتعشت اليد التي تحمل السيف، التفتت إليه الوجوه مستنكرةً. نظر إليه المقري بدوره. كانت أطرافه أشبه بأغصان شجرة جففها القحط ولم يُبق لها غير النار.

– وماذا ستفعل به؟ هذا لا يساوي حبة قمح في سوق العبيد.

– هو نصيبي مما حُزنا.

– أتحرمني من حزّ عنق وتحرم نفسك مما أتاك الله يا مجنون لأجل رجل شريد؟

"اذبحه، اذبجه، اذبحه..."، رددوا جماعةً في طقس احتفالي. "القطط لا تقتل الفئران قبل أن تتلهى بها"، فكر المقري. نظر إلى أعلى مجدداً. كانت السماء جرداء تماماً؛ طلقت آخر الندف ليفترشها الفراغ.

ألقى المراهن على المقري كيساً من الدنانير فساد الصمت، صار الأمر جدياً. قال القائد:

– لعلك جننت؟

فتحوا أفواههم مكركرين، أما عيونهم فتسمرت على الكيس. استطرد القائد وقد عاد أنفه ليعانق الآفاق:

- لا بأس، هو لك، اضرب عنقه، بعه للبرتغاليين، أو انكحه حتى...

امتطى "علي الطليق" حصانه، مد يده للمقري الذي ركب خلفه غير مدرك لما يجري. سأله:

- تقصد مراكش؟

- كنت في طريقي إليها.

الأرض قفر خالية. شجيرات الحلفاء على ندرتها تظهر على مسافات متباعدة، وريح الشّركي تواصل النقر على وتر الشدة؛ ساخنة، حارة، تلفح الوجوه وتثبط العزائم.

لاحت أسوار مراكش من بعيد، أشجار نخيلها فقدت سعفها وواديها الذي جرى أزمنة بالخصب يتلوى كقشرة أفعى، تلامسه الريح فيهيج الغبار. "هاوو"، قال علي الطليق. توقف الحصان فقفز إلى الأرض:

- جاء وقت رد الدين يا حسن.

دقق المقري النظر في وجه الأعرابي النحيف، فتش في ذاكرته العريضة عن هذا الوجه الأسمر الغارق في البؤس. أيقن أنه لم يره يوماً. باغته الرجل:

- لم يعرف أصحابي أنك ثمين، أثمن من حصانك وكيسَي الدنانير. سبقك رجال الخليفة إلى أرض الرحامنة وعرضوا على من قدمك حيّاً وزنك ذهباً.

كركر ضارباً يداً بيد. استطرد:

- لا بد أن الخليفة يعشقك إلى درجة الجنون. لعله حظك، أو

عملك. حصاني هديتي إليك.

ذهل المقري. تابع علي الطليق وقد تخلى صوته عن جفافه:

– أوَنسيتني يا ابن المقري؟ أنا علي، علي الطليق. أنا من اشتريته ذات زمن أغبر عتقاً لرقبته، وأطلقت سراحه في باب فاس. قلت وأنت تضع في يدي بضعة دنانير:

– اذهب فأنت الطليق.

بكى علي، قبّل يد المقري، ثم داعب حصانه مودعاً:

– وها هو القدر يسعفني في رد الدين.

نظر إلى أسوار مراكش التي تغيب تحت وقع الغبار ثم تعود للبروز يتقدمها النخيل المزروع كأوتاد.

– اذهب، فأنت الناجي.

٨

مرّ المطر العاصف كغضبة ناقم، جرت الأودية عبر الجبال والتلال آخذة معها بيوتاً بساكنيها، حطمت، في طريقها، قناطر صغيرة وبائسة، واقتحمت المدينةَ التي غاصت أزقتها في الماء والوحل كما يفيض جسد بالدم وقد مُزقت شرايينه، حتى الخطارات ونطفيات البوادي، بدل أن تمتلئ ماءً، امتلأت بالحجارة والطمي.

مطر المحل والوباء لا يغسل ولا ينظف الخواطر وأغصان الأشجار... مطر ينزل بالقرف، كدم الحيض؛ لا إخصاب، لا حمل، ودورة مفرغة لحياة تجتر هزائمها.

في الصباح استفاقت الشمس كسلى، متلفعةً ببراءة طفل، مضت أسراب طيور، واستأنفت السحب الهشة سبيلها المعتاد كصبايا رشيقاتٍ، مرهفات، يتبخترن على صدور رجال محرومين من الوصال. تحت، الكثير من الجثث التي رماها السيل ولفظها وادي الجواهر على شطّيه، فتحولت إلى خردة يستر الطمي بعضها ويكشف أخرى.

أحمد بلانكو كان في حاجة إلى طوفان يقتلع عوالمه القديمة ويعيد رسم معالم حياة موبوءة. "الماء يقابل الحياة"، فكّر وهو

يستقبل القطرات الأولى ممدداً على الأرض، لكنه يرفض أن تستعيد الحياة دورتها. حرام أن ترتوي الأرض لينتفع المخزن بغلاتها.

أفصحت السماء عن شأوها. دفقت الماء دفقاً. فتح أحمد فمه على وسعه. طافت في خلده أفكار خرقاء؛ أن يبتلع السماء بغيومها ويحوّل الوجود إلى براز. البراز هو التعبير الأصدق عن حياة الخراء التي عرفها بين إسبانيا والمغرب. على بعد أذرع كان متمردون يتابعون المشهد؛ سماء تقذف ملحاً فوق جرح تعفن.

ياسر حي كان يغني بلهجة أمه "تشلحيت" واقفاً على عتبة الكوخ. الصوت الضائع في هدير السماء يدفعه للغناء بصوت أعلى. فكر: "ما أشبه العاصفة بسطوة المخزن". صخب الرعد يناوش في دواخله رغبة جامحة في التمرد. يصرخ. يضيع صوته في هدير الرعد فيعاود الصراخ. تتداخل الصور ببعض؛ وجه أمه "يامنة" يطل بأوشام بنات مازيغ الجميلة، مطر جبال الأطلس الغاضب، ومواويل "الروايس" في بلاد سوس، وتلك الأهازيج الآتية من دروب القحط. يشتد المطر، يظهر العالم محترقاً ككومة حطب تحت سماء رمادية بالكامل. وحده البرق يلسع الأرض، ينفث السم في أوصال الأودية، التي نسيت الماء، ثم يختفي مخلفاً بحراً من الظلمات. استنشق ياسر حي هواءً رطباً غاب لسنوات... من الجهة الأخرى لاحت له يد حارس الربض تلوّح له. رد مقلداً صوت البوم. النعيب أحب الأصوات إليه. التفت إلى رفيقي الدرب. عصام الأنصاري وعبد الله فاضلي كانا بدورهما يتابعان عبر نافذة الكوخ سماءً جنّ جنونها فأخذت في رفس البؤساء:

– هيا يا صاحبي، لنحسن وفادة الزائر الجديد.

مشوا تحت المطر بِترو، غرسوا أيديهم في الوحل ثم رفعوه. كان متيبساً كقطعة حطب. استمر فمه مفتوحاً وسط وجه لم يخمد المطر العاصف حرائقه. مدّدوه على الحصير ثم لفوه بـ"هردال"[1]، وعادوا إلى هواجسهم.

غنت السماء بدورها، غناء المغول، ورقصت، رقص التتار. ردفها الأسود العالي يهتز شامخاً فوق الرؤوس التي لن يفيدها الركوع في استدرار العطف وتأمين البقاء. تعتصر السماء غضباً، تبكي فرحاً؛ تستشيط متلذذةً بقهر المحرومين، فتستعيد الأودية جريانها المحموم، تستجيب لنقمة السماء فتجرف ما تبقى من معالم الحياة. في فاس تمضي المياه الجارفة عبر وادي الجواهر، حيث مياه الصرف، تجري محملةً بآلاف الجثث وأطنان الحجارة والطمي.

في وادي الجواهر، زمن العواصف، تختلط الجثث بالخراء، والبهائم النافقة بالبول. يجرف السيل كلّ شيء بمقدار هائل من الحقد، ثم يشرع في تفريغ حمولته على شطّيه. لا بحر على تخوم فاس. ستنتهي العاصفة وتبلغ رحلة آخر الجثث والأشلاء منتهاها إلى الأرباض والبوادي التي ستستقبل عطايا الوادي كعِبرٍ ودعوات توبة.

كما يمتلئ صدر الناس، وقت المحل، بالغلّ، امتلأت ساحات ربض الطاعون الثلاث سريعاً بالمياه التي تجاوزت عتبات الأكواخ الواطئة. تحت مطر عدائي خرج الكثير من المحاصرين ثم شرعوا في الرقص تباعاً. بدوا كثيران تنتفض على مروّضيها. تقافزوا، تدافعوا... شتموا بعضهم بعضاً، آباءهم الذين جاؤوا بهم إلى عالم منخور،

---

١ نوع من الأفرشة المغربية القديمة، ينسج عادة من الصوف.

والمخزن والأرض والقدر... تكاثروا، وفي لحظة كانت الأكواخ قد أفرغت كل بذاءاتها. في الساحة الأولى ظهرت صخرة الربض، المغروزة كوتدٍ في الصدر، كسفينة تمخر عباب بحر الظلمات. سارع الحارس إلى فتح الباب فاستفرغ الربض حمولته. سالت المياه على التل مخلفةً سفينة الصخر مرتهنةً بقدر الطاعون.

واصلوا رقصهم على أتراح موحلة. غاصت أقدامهم في جراحهم، ولما لم يعد الرقص كافياً، وقد تسيدت السماء المشهد، تقاذفوا بالطين والحجارة. أصيب بعضهم بجروح بليغة وآخرون بكسور في الأطراف والرأس. فقدت امرأة عينها اليمنى وأضاع شاب كل أسنانه بصخرة استقرت في فمه. كان كل شيء مباحاً. لا محظور، والموتى أبداً هم الأوفر حظاً.

تفرقوا بعد ساعات لتعاود الأكواخ معانقة أحزانها. الأوفر حظاً "نفقوا" تحت المطر لترمى جيفتهم صباحاً خلف الأسوار كما يرمي مزارع يائس دجاجات نافقة. ياسر حي، آثر أن يبقى. استهوته لعبة المطر فركب صخرة الربض. ترك للمطر أن يغسله على امتداد ليلة بأكملها. لما أطل الصباح، مبدياً نواياه بيوم مشمس، شعر بجسده، عكس ما خمن، أثقل مما كان، بصدره أكثر امتلاءً. أيقن ساعتها أن الدم هو سبيله لمصالحة نفسه والحياة. عبد الله فاضلي، على غير زميليه وبقية نزلاء ربض الطاعون، فضّل أن ينام. يخشى أن تمتد إلى عوالمه العاصفة المزيد من العواصف فيجن. يفصله عن الجنون خيط رفيع قد يقطعه صدى قطرة ماء أو أزيز باب...

ارتمى عبد الله فاضلي على الحصير. إلى جانبه كان الجسد

المتخشب، الملفوف بـ"الهردال" يتمدد كجثة. إحساسه الراسخ بجسدٍ مستهلك وروح ذابلة يجعلانه ميّالاً إلى الارتخاء. ما اختار التمردَ عن طيب خاطر. وحدها الرغبة في الانتقام من قائد مستبد اختار أمه، مع أخريات، للأنس، رغم أنف أبيه. يعي أن عدوه مات قبل سنين، غير أن موته سكراناً بين أحضان امرأة آسرة الجمال يجعل ميتته مترفةً، على خلاف الجحيم الذي صنعه لخلق كثير على امتداد خرائط بأكملها.

انتزع القائد، الذي أطلق الخليفة يده في الرعية، أمه من بيتها، صادر أملاك أبيه، ثم حاكمه بتهمة إثارة الفتنة والفوضى. جُلِدَ، وتُرك تحت الشمس لأيام. لما تمكن منه الوهن وأنهكه العطش والجوع أمر القائد رجاله بطمره بالحجارة والتراب كي يكون عبرة لمن يجرؤ على معارضة المخزن. أكل الحقد الولدَ، على مدى عشرين سنةً، مخلفاً جسداً نحيلاً وعينين براقتين. التزم الصمت طويلاً ولما لم يعد بإمكانه أن يداري حرائقه التحق بصفوف المتمردين ليدفن وجه أمه في ثورته.

ارتخى عبد الله فاضلي يجتر ماضياً عاشه آلاف المرات بآلاف الألوان، أما عصم الأنصاري، الشغوف بوجه سماء عاصف، فاختار أن يعيد فتح الباب بطريقته؛ ركل الدفة التي سقطت كما يسقط رجل تلقى رصاصة غادرة من صديق. هوت الدفة إلى الخلف غارقةً تحت الماء والوحل.

عادت السماء إلى سيرتها الأولى، ابتسامة ساخرة لصدر خبيث؛ ضيق في اتساعه، وأطلت الشمس، كآية غيّ، لتؤكد للبشر أن الإنسان الطارئ لا يعني للوجود شيئاً.

تصافح ياسر حي وأحمد بلانكو. الملامح الرقيقة للموركسي الشاب، الموروثة عن أصوله العربية الإيبيرية، جعلته أقرب إلى القلب. رغم الكدمات والجروح استمر وجهه أبيض، نقيّاً، أقرب إلى بشرة طفل.

– نجوت، أنت محظوظ يا صاحبي.

قال ياسر، فيما تعلقت عينا أحمد في سرب طيور يغرب في مجاهل السماء. تحولت الطيور إلى خربشات في الأفق ثم تلاشت تماماً كما تتلاشى أحلام غريب على أرض لا ترحم. تكلم كمن يتحدث إلى نفسه:

– لعل البشر أشقى ما وُجد على الأرض.

دعاه ياسر حي إلى كأس شاي. في الكوخ كان رفيقاه قد أعدّا "أتاي". السقف المبني من الطين المدكوك، المرفوع على أعمدة أفعوانية، لا يزال يرشح. رحّبا بالوافد ببضع كلمات. قال عبد الله فاضلي وهو يملأ الكؤوس بالشاي:

– مضت العاصفة.

– العاصفة لم تبدأ بعد يا عصام. اعتصم بحبل الصبر فإن عمر الطغاة أقصر مما تعتقد. رد عصام الأنصاري.

جلس أحمد بلانكو بين رفاقه الجدد. أمكنه في صمت اللحظات الأولى أن يدقق في تفاصيل المبنى المتواضع بهدوء أكبر. رائحة دخان الحطب المحترق في الموقد الحجري، المزروع في أقصى الزاوية اليسرى للكوخ، تحفز الذاكرة على الغوص. تنفس بارتياح، وجوه رفاقه الهادئة، والواثقة، تشعره بالطمأنينة التي افتقدها مذ وطأت

قدماه مدينة فاس، أما قطرات الماء، التي اعترضها نزلاء الكوخ بأوانٍ من حديد، فتخلف، بجرسها الرتيب، إحساساً بالغثيان. "ما أشبهها بحياة البؤساء في الزمن الضنك"، خمن يرتشف الشاي. أثارته بضعة كتب ومخطوطات مصفوفة على رَفٍّ رُفِع على وتدين. سقطت نظرته على بضعة عناوين: **المسالك والممالك** لابن عذاري، **المقدمة** لابن خلدون، و**فصل المقال** لابن رشد. "لا بدّ أن أقرأها جميعها"، قال في نفسه. لا أثاث ذا شأن، حصير الدوم يمتد على الأرضية الطينية وقد تبللت معظم أجزائه جراء قطرات الماء التي رشح بها السقف، وفانوس بالٍ معلق في سلك متدلّ. جال ببصره يرفو تفاصيل صغيرة؛ شق في الجدار، تمزق في الحصير، كسر في ضلع النافذة، وتد عليه سترات من جلد الماعز، دفة باب غارقة في الوحل... تاه في التفاصيل قبل أن يتوقف طويلاً عند جملة محفورة على الحائط: "المخزن مبدأ الشر ومنتهاه".

وزع ياسر حي على الثلاثة قطع خبز معدٍّ من دقيق البشنة، وصب القليل من زيت الزيتون في آنية من فخار. كانت الوجبة الوضيعة بذخاً في زمن القحط. قال ياسر متمطقاً حلاوة الشاي مع الرشفة الأولى:

– السكر عورة المخزن.

"للمخزن عورات، إن لم يكن كله عورة"، فكر أحمد، لكنه لم يجد في نفسه الرغبة في مبادلتهم الكلام. ليس معنياً بشأن فاس أو بلاد المغارب برمتها. جاء مكرهاً يحمل هوية متلفة، أيقن أنها غير قابلة للاستبدال.

خاضوا في تفاصيل معامل السكر التي دأب المخزن على إنشائها

ليرفع من دخوله التي تتحوّل إلى بنادق ورصاص وطبول حرب. تكلموا عن الشرعية التي أوصلت السعديين إلى الحكم، والصراع، الذي كاد يفني البلاد، حول المُلك. أمور تافهة لا تعني لأحمد أكثر من أخبار عن أرض غريبة عنه.

كان ياسر الأكثر استئثاراً بالكلام، تحدث طويلاً ثم جنح إلى أحداث غزو الجيش المغربي، بقيادة جودر باشا، لمملكة سونغاي، أيام المنصور الذهبي. قال لهم بنبرة معلم:

– بدل أن يتجه جيش المغاربة إلى العدوة العليا ليفك الخناق على الثائرين في جبل البشارات، قصد الصحراء...

نظر في وجوههم، ثم سألهم:

– أتعرفون ماذا خسر المغرب في غزو مملكة سونغاي؟

صمتوا، فواصل:

– خسر ثلثي الجيش، وعائدات التجارة مع مملكة سونغاي التي صارت خراباً... أما الربح فلم يكن غير انتصار وهمي يحتاجه المخزن ليرهب به معارضيه في الداخل والخارج...

– وهل يتحمل المخزن مسؤولية خسارة الأندلس؟

سأل عبد الله فاضلي. نظر ياسر إلى نقطة في السقف، أمعن في التفكير، ثم قال بصوت يغلب عليه الأسى:

– قصدت دولة المرابطين الأندلس لتبقيها في حوزتنا، فكان لها أن تنتصر، وتأتي بالمعتمد بن عباد أسيراً من قرطبة إلى أغمات. بانتصار المرابطين هناك فرضوا هيمنتهم على المغرب الأدنى والأوسط والأقصى. لما انهزموا سقطت مراكش في يد الموحدين

الذين هبّوا لعبور البحر كي يأتوا بالشرعية لحكمهم. اتجاه الجيش السعدي جنوباً، إلى مملكة سونغاي، كان يعني نهاية تاريخ وبداية آخر. كانوا أوهن من مقارعة القشتاليين، أما الأندلس فضاعت منذ ربط أهلها مصيرهم بمصير جيرانهم.

نكأ حديث ياسر عن الأندلس جرحاً طرياً. ارتخى أحمد على الجدار يستعيد مأساة التهجير. لاح وجه أمه الشاحب في لحظات احتضارها على قارعة الطريق المفضية إلى ميناء طريفة. "لا تموتي"، قال لها يمسك بيد استسلمت للموت. زهقت روحها وظلت عيناها جاحظتين تحملقان في سماء إيبيرية متلبدة. التفت إلى يساره، كانت أخته تبكي، إلى جانبها أخوه مندوسا يحشو غليونه بما تبقى معه من حشيش. فكر أن يلجأ إلى أبيه كي يخفف عنه آلامه، لكنه فوجئ برجل جُنّ؛ تعرى أمام السابلة وهام على وجهه بين الجبال...

استند عصام الأنصاري على مخدته يتابع بشغف بالغ كلمات رفيقه، طالما أشفى شيئاً من نهمه في حديثه مع ياسر، فهو الذي نظم أفكاره وجعل لتمرده معنى، دونه ما كان ليحلم بعالم مختلف. عصام كان الأكثر حماساً من بين رفاقه، والأشدّ تمرداً. نضجت صورته عن نفسه كثائر مذ صعد فوق ضريح زاوية القبيلة، في صبيحة يوم جمعة ربيعي، ثم بال ساقياً القبر والمريدين الذين جاءوا أبكر. كانت النساء متحلقاتٍ حول قبر "سيدي أبو البركات" متضرعاتٍ وفي جعبة كل واحدة منهن مطلب جاءت لقضائه على عتبات الولي الصالح. أراد أن ينتقم لنفسه من كل الوقت الذي هدره، زمن الصبا، في الطلب والدعاء على رفات رجل استعبدهم حياً، واستغباهم ميتاً، وحتى

يبرهن لبني عشيرته أن ذاك الذي يرقد تحت التراب، وقطعة إزار أخضرَ، لا يملك، لا لنفسه، ولا لغيره، نفعاً ولا ضرراً.

في نفس اليوم تبرأ والده منه وأهدر شيخ الزاوية دمه. فرّ راضياً على فعلته إلى ضواحي فاس، حيث التحق بصفوف المتمردين. استقر أول الأمر في ربض المطامير، ولمّا ذاع صيته، وطار خبره إلى رجال المخزن، ارتأى أصحابه التمويه، فقرروا إخفاءه في ربض الطاعون، كما فعلوا مع غيره من قبل.

سأل عصام زميله الأكثر درايةً منه بأخبار الدول، وقصص الأقوام السابقين، ونشوء العمران وخرابه:

– وهل يبشّر سقوط السعديين بالأفضل؟

عبّ ياسر حي بقية كأس الشاي وأغرق في الصمت. في سواد عينيه ومضت أحلام كبيرة عن مستقبل مجهول. وضع الكأس. على وجهه ارتسمت ابتسامة باردة يمتزج فيها الحب بالكراهية؛ الحب للأرض، والكراهية لمن يسوسها. انتصب معلناً نهاية الحديث، انتزع من على وتد مدقوق في الجدار سترة من جلد الماعز.

– خذها، هذه تقيك من ريح الوباء، لن تحط البراغيث اللعينة فوق جلدك.

زمن الصبا، قبل أن يهجر ياسر حي بلاد السوس، وينزل من الجبل، حيث قبيلة "إداوزيكي"، كان يرقص، على امتداد ليلة، مع الراقصين في المنقلب الشمسي. كانوا يقفزون برشاقة حول النار ويصرخون بحقد ورثوه عن أسلافهم في وجه الأمراض والخوف والمجهول. يرددون فرادى وجماعاتٍ بمواويل إفريقية خالصة: "إننا نتخطاك

أيتها النار تاركين فوقك البراغيث والقمل". جده كان أكثر واقعيةً، كان يحوك ملابس من جلد الماعز ويوزعها على حفدته، يضعها في أيدي الآباء كتمائم تقي من العدوى...

– أفي هذا الطقس يا ياسر؟

– في هذا وفي غيره.

– وإدا رفضتُ؟

– سيكون عليك أن تغادر هذا المكان إلى حيث تواجه الطاعون. تستطيع أن تذهب، لكنك لن تستطيع أن تعود إلى هنا.

اجتاز علي المراكشي، حارس الربض، عتبة الكوخ قافزاً فوق الدفة الغارقة في الوحل، كان زائغ النظرات شاحب الوجه. صرخ في وجه ياسر حي لاهثاً:

– إلى الفرن، إلى بيت النار... تحركوا...

– ماذا جرى؟

– عسْكَرُ المخزن في عتبة البوابة يا ملاعين...

هبّوا. تبعهم أحمد يعرج غير عارف بما ابتلي به. أسرّهُ أن يشارك في لعبة غامضة التفاصيل بعالم أخذ في التخلي عن الرتابة. تعقبهم، دون أن يكون معنياً بأمر التخفي. اجتازوا ممرّاً ضيقاً أخذ في الاتساع تدريجياً، ثم انتهى بمنفرج كشف عن بناء ضخم، له سقف من الآجر، مرفوع على جدران سوّدتها المحن والدخان. لم يخفف المطر العاصف من اللون الأسود للبناء القبيح، بل زاده بؤساً؛ أضفى عليه معالم وجه باكٍ. الباب العريض يكشف عن بهو واسع تصطف فيه ألواح، مُدت كتوابيت، عليها عجين الدخن والبشنة ينتظر النار

وأفواه المنبوذين.

"الرصاص، الرصاص"، ردد ياسر حي، كفقيه يُسبِّحُ، على امتداد الممر. لم يصمت إلا وهو ينحشر عبر الكوة إلى جوف بيت النار، حيث تضيق النفس ويربو إحساس بالدخول إلى الجحيم. التصقوا بالجدار الفاحم، ثم ربضوا في أمكنتهم بانتظار الآتي. قال عصام الأنصاري يضرب الجدار بقبضة يده:

– ما عاد هناك مكان محصن من المخزن.

– تراهم اشتموا رائحتنا؟ تساءل عبد الله فاضلي.

أحمد بلانكو فكر في فظاعة المآل إن اكتشف رجال المخزن مكان اختبائهم. سيدفع العساكر بالمزيد من الحطب إلى بيت النار ويحولونهم إلى رماد. سيكون للخبز مذاق خاص، فكر. لا بد أن يأخذوا نصيبهم من الغلة ويأكلوا بشراهة ضباع ما نضج على عظام بشرية.

من ضيق المكان فر ياسر حي بعيداً، إلى حيث حقول السكر وآلاف الفلاحين البسطاء الذين يسخرهم المخزن كأدوات لرفع إيراداته، استحضر وجوه زملائه هناك، أولئك الذين ينتظرون بشغف بالغ شارة البدء ليحولوا الحقول ومعامل السكر إلى خرائب. "هل تأخرنا في إضرام النار في الهشيم؟"، خمن ككل مرة يتعرض فيها إلى خطر.

وقف عامل الفرن بقامة تربو عن المترين، على رأسه قبّعة مغزولة من دوم، وفي يده عصا الطرح. بشرته السوداء الغامقة وأنفه الأفطح يجعلان منه قطعة أصيلة من البناء الغارق في الكآبة والبؤس. حتى الإحساس بالكراهية الذي يفيض به صدره يرين شرراً على عينين يغلب سوادهما على بياضهما. تنفس بعمق متمنياً ألا تخونه أعصابه

هذه المرة فيهوي بعصاه على أحد عساكر المخزن. غمغم ناظراً إلى نقطة في السقف: "متى نُخرِجُ المخبوء ونفرج معه عن غضبنا؟".

فتح علي المراكشي البوابة على العساكر الثلاثة. كانوا كلهم بكسوة الملف والحرير، على أبهى شارة وأحسن زي. امتصّ غضبهم عن تأخره متعللاً بقضاء الحاجة:

– حاشاكم، كنت في المرحاض، أعز الله قدركم.

– لا بأس. أجاب كبيرهم مستعلياً.

رحّبَ علي المراكشي بهم وأثنى على المخزن الذي يحُولُ دون التسيب، ويلجم المارقين، وامتدح رجاله الذين لا يستقيم أمر دونهم. وما إن لانوا حتى أخذ يثقل عليهم بنصائحه، مذكراً بفساد ريح الربض وسرعة انتقال العدوى. أسكته كبيرهم:

– لا تكثر يا هذا فإنا نداوم على الترياق فلا يصيبنا مكروه.

– لا ترياق يجدي مع الطاعون سيدي.

– ترياق مولانا الخليفة وخاصته والمخلصين من عساكره يا رجل.

"بلهاء ومغفلون"، قال في نفسه. "وكم من سلطان قضى نحبه بالطاعون". أجاب بهدوء يبعث الشك في الصدور، محافظاً على وجه تتداخل فيه السذاجة بالخنوع:

– لا بأس مادمتم تداومون على ترياق مولانا الخليفة سادتي.

مضوا في ساحة الربض مختالين في كسوتهم المخزنية، يعرفون مسبقاً أن المجال الأول، الممتد من الباب الكبير إلى جدار العزل الأول، أكثر أماناً مما يليه، ففيه يقيم المضطهدون الذين كاد لهم

المخزن فأطلق يد القضاة والعدول في أرزاقهم وأولادهم. مدّوا أبصارهم على طول الأكواخ المزروعة لصق الجدار. عشرات الأبواب المغلقة تتابع كحلقات سلسلة تحكم الطوق على نزلائها. سألوا عن أسماء بعينها، ثم أوصوا بنقل البعض إلى الجناح الموبوء مرددين العبارة نفسها: "الطاعون أولى بأبناء البغايا".

على عتبة الباب المفضي إلى المجال الثاني، حيث يقيم من لم تتأكد أعراض الوباء عليه بعد، لمح الآمر المخزني بيتاً شعرياً على الجدار الخارجي لأحد الأكواخ. نظر إلى مرافقيه مستنكراً:

– شِعر في مزبلة.

انقلبوا إلى الكوخ رأساً. تنفس العسكريان بارتياح، آخر أمنياتهما أن ينحشرا بين المرضى. توقف الآمر دافعاً صدره إلى أعلى فتوقفا، تأمل البيت لحظات:

الناسُ كالناسِ والأيام واحدة
والدهرُ كالدهرِ والدنيا لمن غلبا

استغل الحارس انشغالهم بقراءة البيت، انسل بخفة قط إلى الداخل. وقع بصره على الجملة المنقوشة على الجدار الداخلي للكوخ: "المخزن مبدأ الشر ومنتهاه". دنا من الجدار يأكله الغيظ على طيش رفقاء دربه. اتكأ على العبارة مولياً وجهه شطر الباب. صفّر الآمر وهو يدلف عبر العتبة:

– كتب ومخطوطات؟

– إنها غرفتي سيدي، أبيت فيها متى كان أجدى أن أُبقِيَ عيني

على نزيل ارتبت في أمره.

قلب الكتب والمخطوطات ثم جال ببصره في الغرفة:

– أتسمح بدخول الخراء إلى الربض يا علي؟

– دونكم ما يدخل غير الخراء سيدي؟

كركر المخزني واهتزت كرشه الكبيرة وقد أعجبه الجواب. انقلب إلى خارج الكوخ ممتلئ الصّدر، تبعه العسكريان فأعقبهم الحارس... توقفوا في الساحة، جال الآمر ببصره عبر الأكواخ ثم خطا اتجاه الفرن ناصحاً:

– إياك يا علي واللين، فإن من لان مع الضالين صار منهم. أليس الطاعون غضب اللهِ على العباد؟

– بلى سيدي...

– لن نكون أرحم على الخلق من الخالق.

ربت على كتفه:

– أنت هنا حارس لبوابة جهنم. في الحياة الآخرة هناك الله، وهنا، في الحياة الدنيا، يوجد الخليفة؛ خليفة الله وظله على الأرض.

– مفهوم سيدي...

التفت إليه الآمر كمن غفل عن شيء مهم:

– ولمَ لا تحمل بندقيتك يا بغل؟

– سأحملها سيدي... سأحملها.

تبادل العسكريان نظرات ريبة، لكنهما لم يجرؤا على الإفصاح، دورهما الدائم أن ينفذا الأوامر التي توجه إليهما كما هي، أو يدافعا عن سادتهما متى تعرضوا لخطر.

عبَرُوا الممر الضيق إلى ساحة الفرن. "يا حفيظ"، قال الحارس في نفسه يقاوم إحساسا بالدوار. لمحهم الخبّازُ يتقدمون وما إن اقتربوا من الباب حتى أضرم النار. "أسرعوا، هيا يا حفدة الشيطان"، قال ضاغطاً على أسنانه. يعرف تلك الوجوه القبيحة التي تعتاش على الدم؛ كلما قتلت أكثر صعدت مراقيَ في سلّم أسيادها. ارتعشت يده التي تمسك على عصا الطرح. "اهدئي، اهدئي..."، قال يحدثها كمن يروّضُ لبوءة كي لا تنقض.

– حسن الخبّاز، خادمكم. قال الحارس.

– أين بقية الخبّازين؟

قال الآمر باستكبار.

– أنهوا عملهم وغادروا فور انجلاء العاصفة.

– ليسوا عبيداً إذن؟

نظر الآمر مستنكراً إلى الألواح المصفوفة كنعوش على طول فناء الفرن. سأل الخبّازَ بحسّ صراف:

– كم خبزة تعدّون كل يوم؟

– خمس مائة.

– أكره الأجوبة القصيرة.

قال، يتوعّد، ويده تداعب فوهة البندقية. أضاف بخبث:

– وطوال القامة، من السود خاصة.

ردّ الخبّازُ متلافيا هدر المزيد من الوقت:

– خمس مائة خبزة لكل يوم، ما يعني نصف خبزة للشخص الواحد على مدى بياض النهار وسواد الليل.

– البندقية تجعل العبيد أكثر لطفاً.

قال ينظر إلى الحارس. كركر العسكريان مِلء شدقيهما. استطرد:

– خمس مائة خبزة كثير على الحثالة. نحن في زمن قحط يا غبي، اكتف بمائتين وخمسين، وسيكون أجمل إذا ترك أبناء البغايا ليأكلوا بعضهم بعضا أو يموتوا جوعا.

ارتعشت يد الخبّازِ مجدداً وفي صدره اضطرمت نار الكراهية على عدو مجهول؛ لاحت مشاهد من ماض غائم لا تكاد تبين حتى تغرق في ضباب الطفولة المبكرة. صُوَرٌ كثيرة لرجال ونساء سُودٍ وأشلاءُ ذكريات عن رحلة في خرج دابة. حاول ألف مرّة أن يستحضر وجه النخّاس الذي باعه في رحبة العبيد، لكن وهن ذاكرة طفل السنوات الخمس لمْ تعقل ما يفي بالغرض. "أقتُلُهُ وأموتُ"، ردّد آلافاً، غير أن الأمْرَ كان عصياً، عشرات الآلاف من النخاسين يدخلون حاضرة فاس قادمين من تمبكتو وشنكيط محمّلين بأطفال سرقوا غدراً أو بيعوا بسبب الجوع.

ضربه الآمِرُ بكعْبِ البندقية على بطنه:

– أين سرحْتَ يا بغل؟

صرَخَ طِفلُ السنوات الخمس يُلِحُّ في طلب الانتقام. قاوم كما لم يفعل من قبل، ولمّا تناهى إليه صوت بكائه الآتي من أقبية الماضي استسلم للرغبة في الانتقام. تحرّرتِ اللبوءة من سطوته أخيراً فارتفعت عصا الطرح عالياً وهوت، بما في صدره من غل قديم، على رأس الآمر. لَمْ يمهله العسكريان وقتاً إضافياً ليعاود الكرة، صوبوا فوهات بنادقهم نحو بطنه، وحشوَا أمعاءه بما معهما من ذخيرة.

٩

صفّدوه ثم قادوه إلى القصر. لم يسألهم عن جرمه ولا ساوم بما تراكم في خزينته من ذهب وفضة وأثواب من حرير فاخر وملف. مدّ يديه للعسكري الذي أغاظته رباطة جأشه فضربه على قفاه. في الخارج انتبه للمرّة الأولى أنّ زقزقة العصافير ما زالت تصدح رغم سنوات القحط المتتالية، ورغم العاصفة التي جاءت نكاية في الحالمين بالمطر، أو لعلها: "نفسي التي ستتطهّرُ بدمها المسفوك، دون وجه حق، من خطيئة وقوفها سنداً لرجل طغى في الأرض واستكبر على الخلق".

ساقوه حافي القدمين، حاسر الرأس، بحسب الأوامر، عبْر طريق أطول، لتنكسر شوكته، وحتى يمثل ذليلاً بين يدي الخليفة. فاجأته السلسلة التي وضعوها على عنقه، والتي مُدّت بحبل لتُربطَ بذيل بغل يركبه مخزني ضخم الكسدة. حافظ على رأسه مرفوعة، ودفع صدره إلى الأمام. يعرف أنها الصورة التي ستعلق في أذهان الناس، وترسخ في ذاكرة الأجيال، ويوثقها الإخباريون عنه. لا بد سيتحدثون عنه في البيوت والمساجد والحانات، ويسهبون في وصف التفاصيل؛

هيئته، مشيته، لون وجهه، وشموخه وهو يمشي إلى حتفه دون أن ترتعش شفتاه.

وعوَضَ أن يغرق الصراف، كما أرادوا له، في الهوان، مشى مزهواً، لسان حاله يتحدث صراحة عن رجل وقف في وجه الطاغية، انتصاراً للمظلوم على الظالم. أمكنه أن يُحيِّي الناس، الذين نسوا للحظات تلك الجثث التي لفظتها مياه وادي الجواهر على شطيه، ووقفوا ليتابعوا المشهد. شيّعته تصفيقات الأطفال وزغاريد نساء شجّعتهُنّ البَراقعُ، التي تخفي وجوههن عن عيون عساكر المخزن، على الزغردة والتهليل.

في القصر، تحت قبّة الديوان، ظهر الخليفة أهدأ ممّا خمّن الصرّاف. بدا مرتاحاً على كرسيه المذهب، في تمام الصحة والنضارة. كما المعتاد، كان صحبه وخاصته يجلسون في كراسي مفضضة على أرضية أقلّ ارتفاعاً حفظاً للمراتب. من حول الجالسين انتصبت أعمدة رخامية، تنتهي بقبّة عالية مصنوعة من خشب السرو، وعليها نقوش كالتي في قباب قصر الحمراء.

– هكذا يرد المعروف يا ابن...

عدل الخليفة عن إتمام الجملة. ما أراد لهذا اللقاء أن يطول. المهم أن يشهد صحبه الأقربون على النهاية البائسة لرجل ارتد عن الولاء له. عبّ كوب خمر، ثم تابع:

– لك أن تختار بما تموت.

ابتسم الرجل الذي وفد ذات يوم بعيد من بئر طمطم، حيث قبيلة الحياينة التي استقدمها السعديون، في ما مضى، من المشرق، لتكون

سندهم الذي يعوّل عليه، وعصاهم التي يهشّون بها على العباد. جال ببصره، مرّ على الوجوه التي كان يجلس بينها في أمس قريب فتحاشته العيون. قال لهم:

– أنا من أخبر المقري بما دُبّرَ له طمعاً في ماله وأهل بيته، وأنا من أوصاه بالسفر إلى السلطان، في حضرة مراكش، ليرفع الأب بقيةً من أذى ابنه عنا.

وقف الخليفة، رفع يده كي يلزمه الصمت.

– لا بد أن يقف المقري حيث تقف أنت.

عاد لينظر بازدراء إلى الجالسين على الكراسي المفضضة.

– الوقوف هنا شرف.

– ولا بد له أن يجيب عن ذات السؤال، بأي طرق تختار أن تموت؟

كان الصراف أذكى مما عدّ الخليفة، هزّ رأسه دلالة الفهم لما لاح في ذهن غريمه. ابتسم بمكر. أتاح له قاتله بالسؤال الذي طرح عليه أن يرد له الدين. نظر الحياني الصراف إلى الخليفة شامتاً:

– اختر أنت لنفسك، فإن المرء لمقتول بما قتَل به.

احتقن وجه الخليفة وقد أدرك الشَّرك الذي أوقعه الصرّاف فيه؛ سريعاً سيكثر اللغط على قوله ويصير إلى قدر يتهدده عند كل فتنة تلوح في الأفق. تنحنح، جاهد ليبدي لامبالاته. كان على يقين أنّ الجميع مدرك لِمَا رماه به الحياني. حاول أن يلتف:

– أتخون الأمانة يا صرّاف وقد منحناك ثقتنا وقربناك منا؟

– أنت من خان ما استخلفه والده عليه، فقضيت على هواك،

واستبحت المحارم، ولم تستنكف على قبيحة إلا وأتيتها... والله ما رأيت أقبح من منك طبعاً ولا أكثر فجوراً.

طار صواب الخليفة. أرغى وأزبد مستعملاً كل الكلمات التي حفظ على مدى حياته الحافلة بالهوى والغلمان، ولمّا لم يشفَ غله، نظر إلى جلادي القصر بعينين زائغتين:

– هيا، خذوا هذه الأفعى واقطعوا رأسها بشاقور[1].

ردّ الصراف وهم يسحبونه إلى خارج القاعة متمسكاً بهدوء مستفز:

– احتفظ بالشاقور يا غِرّ، فإنك لقاضٍ بها في أجل قريب.

---

[1] آلة شبيهة بالفأس تستعمل للقطع، لا تزال تستخدم حتى اليوم في المغرب.

١٠

غير بعيدٍ، على منحدر تلٍّ مرتفع كدمل ينتصب مبنى ربض الطاعون المشؤوم كتتويج لسنوات طويلة من القهر والاستعباد، ما كان ليكون أقبح، بأسواره التي يحكى أنها دكت بجماجم المتمردين وذويهم، وبلونها البُرازِي الذي يوحي لمن يقترب بميضأة عظمى، بين أكواخ كثيرة، ومبنية من الطين والقش، شرع الحاج عمرو الإدريسي الزرهوني، بتواطؤ مع حارس الربض، الذي جلب له المطرقة والإزميل، في نحت الكتلة الصخرية التي توسطت الساحة الأولى.
أسرج عمرو صدره بنفحة غل ثم انطلق في قطع الأطراف التي لا لزوم لها. كان شغوفاً بعمله الجديد، مندفعاً، يعمل كنقار الخشب.
قال له الحارس:

– إنها فرصتك الأخيرة يا عمرو، لتنفث الروح في الصخر، فتذل عدوك وعدونا.

دندن الحاج عمر مغتبطاً، وانكب على العمل. سأله الحارس:

– اعذرني يا حاج، لكنك أعمى. كيف يستقيم للأعمى أن ينحت الصخر؟

استمر يدندن. لما أعاد عليه طرح السؤال توقف. أغرق في الصمت. أخذ نفساً عميقاً ثم سأله:

– هل يحزنك يا علي أن تموت قبل موت غريمك؟

خالجه شعور بالغرابة سرعان ما تحول إلى إحساس بالخوف.

– لا أعرف ما تعني يا حاج.

عاد عمرو إلى العمل وانقلب الحارس منقبض الصدر إلى غرفة الحراسة. في الصباح كانت فكرة النهاية قد تبلورت بشكل أوضح في ذهن علي المراكشي متلازمة بشعور راسخ: "لقد أنبأني عمرو بدنو نهايتي".

أحدٌ في الرّبض لم يسأل الحاج عمرو عما يفعل، ولا عبّر عن الضيق جراء صدى الطرق الذي امتد إلى الشعاب الجرداء. فجراً سيدثر الحاج عمرو صنيعته ببراقع سوداء، يقصد كوخه طلباً لشيء من الراحة، يتمدد على الحصير، ويكون له أن يبحر، عبر ماضيه، ليعيش تفاصيل أيامه الخالية مرة بعد أخرى، قبل أن يعاود الليل النزول، فيعود بدوره إلى حمل المطرقة والإزميل.

لم يبقَ في يد الحاج عمرو، بعد المجد والثروة اللتين حازهما في حياته، غير هواية النحت التي سيق منها إلى مصيره البائس. أولع عمرو في صباه بالنقش متأثراً بصنعة والده الذي امتلك ورشاً صغيرةً في درب الدقاقين، حيث تتجاور محلات صناعة أواني الفضة والنحاس ومتاجر الحلي، ثم انتقل إلى ورشة لصناعة الخزف، فبرع في تشكيل قطع فريدة أقبل عليها تجار من البرتغال وإسبانيا وبلاد الترك.

راكم عمرو في زمن ضيّق مالاً وافراً أمكنه من فتح محلات جديدة

أشرف على تسييرها مع والده وأخوته. في بيت العائلة شرع سراً في نحت قطع من الخشب صنع منها تماثيل باهرة. احتج والده الذي اكتشفها صدفة فألقاها كلها في النار متحججاً بالحرام والحلال. انتقل عمرو إلى نحت قطع من حجر الغرانيت، التي بات يخفيها ليلاً، في حفر أشبه بقبور صغيرة، في حديقة البيت.

كبُر عمرو الزرهوني الإدريسي، وكبرت معه الرغبة في النحت، ثم اتخذت أبعاداً أعمق مع التحريم والنهي المتكرر والمنع. بات يراها كائنات حية، متحركة، منعت من التمتع بالحياة العامة. تزوّج في سن السابعة عشرة، استقلّ بسكناه ومحلاته التجارية، فصار بوسعه أن يصنع تماثيل أكبر، بعدد أوفر، ويزيّن بها الغرف التي لا يصلها لا الغريب ولا القريب. تجرأ أكثر فأقدم على تقديم بعض منها هدايا لتجار من بلدان أجنبية لا يمنع فيها التجسيم.

بنى قصراً فاخراً في فاس الجديد، إلى جانب قصور الولاة والذوات ورياض كبار رجال المخزن، ما جعل الخلفاء المتعاقبين يقرّبونه إلى خاصتهم. التحق في سنواته العشر الأخيرة ببطانة القصر ليفيد تجارته من نفوذ السلطة، غير أن الحظ الذي حالفه على مدى أيام عمره الحافل تخلى عنه أخيراً. احتاج الجيش للتجهيز، وتسديد الرواتب المتأخرة للصفوف النظامية، وإكرام فرق المتطوعة التي تعتاش على بقايا موائد السلطة، ولمّا كانت موارد المخزن قد شحت بفعل الجفاف والوباء وركود التجارة التي توقفت بتقطع أوصال الدولة، التفت القصر إلى أتباعه. الحاج عمرو كان ضحية سهلة، كما خمنوا، لافتقاره لمن يدعمه من داخل قصر السلطان في حضرة

مراكش، وغياب خلفية عصبية تلجم الطامعين، فلم ينحدر من قبيلة يُضرَبُ لها حساب أو عائلة ذات أقطاب يصعب المساس بفرد منها. استصدر الخليفة فتوى من فقهاء فاس تشكك في ذمة الحاج عمرو، لبيعه الأصنام للكفرة. اقتحموا بيته فجراً، جمعوا كل التماثيل التي صانها لعقود، في ساحة القصر، ثم أطلقوا العنان لهراواتهم.

راجت حكايات كثيرة، رويت بطرق شتى، كما هي الحال مع كل حدث تعرفه فاس، عن اقتحام البيت والتخلص من صنائع الحاج عمرو. قال البعض إنه ترجاهم ألا يكسروها، ثم عرض عليهم افتداءها بأموال لا يمكن لهم اكتشاف أمكنتها، ولمّا أيقن من عزمهم المكين شتم الخليفة ووالده الذي ولاه شؤون مدينة بحجم فاس وعراقتها.

ضربوه فطال لسانه أكثر. شرعوا في تكسير التماثيل فبكى بمرارة. وجدوا خلف كل تمثال ورقة دوّن عليها اسم التمثال وتاريخ ميلاده. شعروا وهم يحطمون التماثيل التي كومت في ساحة القصر كأنما يُصفّون كائناتٍ حية. كانت متقنة إلى درجة تثير الدهشة، محمّلة بعواطف قوية؛ الحب والكراهية والسعادة والغبن... زاد من حدة ذلك الانطباع ولولة الحاج عمرو التي تجاوز صداها أسوار قصره الفخم إلى الشوارع والقصور القريبة.

"جن الحاج عمرو"، أجمع كل من حضر مجزرة التماثيل. أوثقوه ثم قادوه إلى السجن، ولمّا خشي الخليفة من فراره أمر مَخْزَنِييه بسمل عينيه. جاءه الجلادون ففوجئوا بعينين انطفأ وهجُهما. نظروا منبهرين في وجوه بعضهم البعض ثم انقلبوا إلى سيّدهم: "قد ذهب كمده ببصره". لم يستسغ الخليفة الأمر، وجد في الواقعة بعداً شيطانياً

يكرس لعنة رجل سيزرع الشؤم في مفاصل السلطة. أمرهم بنقله إلى ربض الطاعون، وأوصاهم بعدم التعرض إليه، إلى أن يهلك بالمرض، أو تذهب به رياح خريف العمر.

لمّا عادوا إليه، كي يسوقوه إلى الربض، أنبأهم بمصير الخليفة البائس، ثم نصحهم بنزع زي العسكر الذي لن يحميهم يوم لا يعود لأسوار فاس القدرة على صد الغازين. تطوع أحد الرجال ليقوده فامتنع: "أرى طريقي بوضوح كما أرى هلاك سيدكم، فافسحوا الطريق، ولا تمسسني يد لوثتها دراهم المخزن".

شعروا بالخزي واكتفوا بالصمت. في باب الربض استقبله الحارس بحفاوة، وقبل أن يقدم له نفسه هزّ رأسه:

– نعم، أنت علي، علي المراكشي. أولم تشتغل في ورشتي قبل أن تُبلَى بكسوة المخزن؟

– وكيف عرفتني وقد مسّك العمى؟

ابتسم بعمق، ثم اتشح وجهه بالأسى. لمّا سأله الحارس عن سر الحزن الذي طفح دفعة واحدة ردد بصوت خفيض:

– حمّام الأكابر.

١١

بلغ بعد جهد عسير إلى رأس جبل "يفرن". كان منهكاً وبائساً، وفي صدره وقر إحساس ممض بدنو الفناء؛ توقفت العيون عن دفق الماء وكفت الأنهار عن الجريان، وانعدم الأمان...

جلس على صخرة، مدد ساقيه وقد تورمت قدماه ثم أطلق بصره على مدى جبالٍ مكسوة بأشجار السّرو التي لم تزدها العاصفة إلا عطشاً. كان الأوان مساءً، رياح باردة تهب، ومخاط شمس باكية يتدفق على الغابات فتبدو أشجارها المجروحة كرؤوس نساء صبغن شعرهن بحناء زاهٍ لونُها كالدّم...

حامد المقري يكره الطيور السوداء والغروب والنساء اللواتي يصبغن شعرهن بالحناء.

حزّ في نفسه أن يلوذ إلى الجبل ويترك أمه وأخته ليواجها مصيرهما البائس. ما كان ليُدْبِرَ لولا توسلّات أمل التي كانت على يقين جازم، لا يضاهيه غير يقينها في فساد جبلة البشر، أنهم سيذبحون ابنها الأوحد، كخروف، ويعلقون رأسه على مدخل المدينة، انتقاماً من أب رفض الاستسلام. قال لأمه معترضاً:

– هل أهرب وأترككما للشيطان يا أمي؟

– أما نحن فلن نذبح يا بنيّ، تسبى النساء ولا يُقتلن.

– لا يا أمي، أموت ولا أفر فيكتب عليّ الذل.

– ليس عيباً أن يحفظ المرء حياته.

– وبما أواجه أبي إذا لقيته وقد استأمنني عليكما.

قالت زهرة بذات منطقها الرصين:

– وهل يرضيه أن تذبح؟ اسمع يا حامد، لا تهدر وقتاً ثميناً فتُفوّت الفرصة عليك وعلينا. إذا نجوت أمكننا أن نقاوم آلامنا ونحلم بخلاص قريب.

حمل معه ما أمكنه من دراهم ذهبية ثم انحدر مع السلم إلى الطابق التحت أرضي. أزاحوا خزانة ضخمة من خشب الأرز لينحشر عبر دهليز ضيق وفي يده فانوس صغير. قالت له أمه بصوت باك:

– ستنتهي إلى بيت حي العطارين. لا تمكث فيه ساعة ولا تستأخر. ارحل عبر باب أبي الفتوح، وامض إلى غابات "يفرن"، فثمة قبائل لم يكسر المخزن شوكتها بعد ولا تبلغها ريح الوباء إلا لماماً.

قالت زهرة:

– ارحل عبْر الدهليز وعد إلى القصر من بوابته يا حامد.

– من يخرج عبر الدهاليز لا يعود أبداً.

ردّ بصوت لا يكاد يبين.

لَمّا أقام المقري قصره الصغير، وقد ازدهرت تجارته وكثر رزقه، جاء بزوجته، التي كادت تفقد عقلها من شدة الفرح، إلى القصر. ما كانت تحلم بالسكن في بيت محصّن بأسوار عالية، مزهو بالحدائق.

متعطش للدم المزيد من الرقاب.

- شكون؟

- جنية من غابات الأرز.

قالت تضحك. ترك رأسه يسقط بين ركبتيه كطفل وديع. لا مكان في صدره لأيّ كان. ارتقت الصخرة برشاقة القطط، لامست شعره. رفع رأسه فظهرت أولى النجوم لامعة في سماء تتداخل فيها القسوة بالجمال.

١٢

دخل حسن المقري، أو حسن الناجي، أو حسن الثائر، كما أطلق عليه أهل فاس دون أن يكون كذلك، إلى مراكش مساءً، يجر حصانه الجديد. كانت السماء في حداد تام، تلبس الثوب الرمادي البائس، الذي يطلي الوجوه بوشاح حزين. خمن المقري أن أرض المغارب تنحدر بثبات إلى الفناء. شيء ما في داخل الصدور، عبر عيون الناس، يرين على الجدران المتربة، غير الطاعون والقحط والخوف من قطاع الطرق الذين باتوا أسياد أرض يباب، يلوح متوعداً بالأسوأ.

ارتفعت تكبيرات آذان المغرب، حلقت في جوف السماء المثقلة لتناوش أحلام البؤساء، فأسرع الرجال إلى المراحيض ابتغاء الوضوء، متزاحمين على أبواب المساجد. هرولوا مكسورين، محبطين، وقد ضاقت بهم الأرض بما رحبت وسدت أمامهم السبل إلى فرج قريب. لاحظ المقري أن السكان توقفوا عن الاعتناء بمظهرهم كما أُثر عن أهل مراكش، وأن البهجة التي جبلوا عليها جيلاً بعد جيل طمرتها المحن. "نسيت مراكش أعراسها وصارت خيمة عزاء"، غمغم يواصل المسير.

اجتاحته رغبة ملحة في السجود، كان في حاجة لمن يتقاسم معه

آلامه، لمن يستمع إلى شكواه، ويستجير به فيستجيب: "ومن غيرك يا رب السموات والأرض يقدر على نصرة المظلومين وكسر شوكة الظالمين، من غيرك يا رحمن ويا رحيم...". ربط الحصان في جذع شجرة دعا الله شاكياً، ثم دخل إلى المسجد. صلى في خشوع ودعا الله أن يكون في عونه وعون أبنائه. صوت الإمام كان شجياً وجميلاً، أجمل مما سمع في كامل حياته. غرق بين الكلمات وقد وجد فيها الفيض الذي يليق بجلال ما يجري. انقطع عن الوجود لحظات وتمنى ألا يعود إليه أبداً.

قضى ليلته الأولى في نزل وضيع ذكّره بزمن البدايات، حين وصل إلى مدينة فاس صِفْرَ اليدين. كان سعيداً يومها لأن القدر سهّل له بلوغ حاضرة عريقة. اشتغل حمالاً ومنظفاً وسائساً، قبل أن يتاح له ولوج جامع القرويين. فيه عُرِفَ بحفظه للقرآن، وبصوته الرخيم الذي ما سمعه شخص إلا واستعذبه. أطلق عليه معلمه "محمد الهبة" لقب المقري لحسن قراءته، لكنه ما كان يريد أن يصير فقيهاً وهو الذي لم يحب الفقهاء يوماً. كره فيهم شرههم للمال والطعام، موالاتهم للسلاطين، ونزوعهم للشدة في معالجة قضايا الناس.

رأى مومسات كثيرات في النزل، ورجالاً أقرب إلى النساء في تخنثهن ولباسهن. وصفهم له مستخدم الاستقبال كمن يفضي له بسر:

– إنهم مثل النساء في كل شيء، بل أكثر إمتاعاً، يقبلون عليك بمقابل، وأحياناً بدون.

– كيف يا رجل؟

سأل المقري متقززاً. رد المستخدم ضاحكاً:

- إنهم يتداوون بماء الرجال.

فكر في المغادرة إلى نزل يبعث على شيء من الارتياح ويبدد شعوره الثقيل بالضيق. الوجه الكالح لمحاوره يزيد المكان قبحاً. واصل يقصد استفزازه:

- جرّب يا صاحبي، لن تخسر شيئاً...

بصق المقري في الأرض. التفت إلى الخلف، في الخارج كان الليل يطلي كل شيء؛ الشارع المترب، النخلة اليابسة، المنتصبة بلا سعف، كعجوز بلا شعر، والصمت المغموس في صدورٍ هدّ اليأس عزائمها، وكان خوف منفلت كمارد يتحرك مع الريح التي تهب حارة، غير آبهة بأفول شمس اليوم.

- سأبيت الليلة عندكم.

- يا مرحب يا عم. اطلب ما تشتهي، غلماناً ونساء...

استعاذ المقري ثم مضى تشيعه قهقهات المستخدم. فكر حسن وهو مستلق على الحصير، في غرفة خالية من الأثاث، أن السلطان هنا في مراكش، لا بدّ أن يشبه الابن هناك في فاس، وأن الرحلة التي تكبد مخاطرها قد تكون رحلة مفرغة، من ابن أفسده الدلال، إلى أب مفسدة أقبَر الملك إحساسه بالمظلومين.

حاول أن ينام. كان مرهقاً، أنهكه طول السفر والتفكير في ما يواري الزمن، لكن البعوض حرمه من الراحة التي جاء ينشدها. أطفأ الشمعة ففاحت رائحة فتيلها ثقيلة على الصدر والذاكرة. ليل عسير ثم أقبل صبح متربص. فتح النافذة، بدت أسطح المنازل، من علو الطابق الثاني للنزال، كظهور رجال انحنوا سجوداً للشياطين. كان

كل شيء منبطحاً؛ الأرض والناس والقدر. لْم يكن ثمة أثر لغيمة أو دفقة هواء تنعش الروح، أو هامة تتطلع إليها العين... لا شيء غير رياح الشرقي حارّة تهب، مصدرة صوتاً أقرب إلى الفحيح، فتحاصر النفس بين الضيق والضيق. من بعيد يطل جبل "كيليز" المتغطرس، برأسه الأسود، متوعداً ساكنة القصور، بصياغة جديدة نسجاً على منوال حكايات الأقدمين.

أخرج النقود الذهبية التي أحسن التمويه بإخفائها في حشوة الحزام. أكل الصعاليك الطُّعم باكتفائهم بالكيس. "أي معتوه سيضع كل ماله في كيس وهو يقطع ألف ميل في زمن التسيب؟"، فكر منتشياً بنجاح حيلته، ثم عاد للنافذة. ظلّ على امتداد حياته يعشق النوافذ والشرفات، ولما أكرمته الحياة بنى قصراً صغيراً بنوافذ عريضة وشرفات واسعة.

هام في بضعة تفاصيل؛ نخيل يابس، أسطح يغطيها الغبار على بيوت يلوح عليها أثر الخراب، وبضعة رجال يمشون بعناء حاملين أرواحاً يتربص بها الجوع وقطاع الطرق ورجال المخزن والطاعون... الأفق معتم، ينكسر البصر ويرتد إلى عتمة الروح. فكر: "الحياة التي بطعم القطران تدفع إلى مغازلة الموت".

هزّه قرع جريء على الباب، بحث عن سطح مبنى قريب يمكن القفز إليه إذا ما داهمه "أوباش" المخزن السعدي. تكرر القرع أخف وألين. فتح الباب المثقل بالرطوبة والخشب، فأطل وجه مليح:

– عفواً.

نظرت إليه مستغربة. كانت تلبس ملحفاً أهملت لفه، فكشف شيئاً من تفاصيل جسد باذخ في زمن الشدة. عبْر كتفيها تدلى شعرها

الليلي الفاحم. فغر فاه لحظات: "كيف لوردة أن تفوح في ميضأة؟".
غاص في عينين واسعتين يستريح فيهما القلب ويطمئن لهما البال.
ارتخى على شط من الرمال البيضاء. إنها المرة الأولى التي يتطلع فيها بهذه الجرأة إلى وجه امرأة غريبة.

أضافت محافظة على بسمة لا تخلو من هزء:

– عفواً، لعلي أخطأت باب الغرفة.

ودّ أن يقول لها إن الأخطاء الجميلة لا تزعج أحداً، وتمنى أن تتمادى في خطئها، فيصير الخطأ خطيئة، وتربو الخطيئة الواحدة فتصير خطايا تلتئم في فحش. في الضفة الأخرى، في الجبهة المقابلة، حيث يقف مخزني متأبطاً حزمة من الإرشادات، كانت الأوامر والنواهي تتواتر متوعدة بالعقاب. نفض رأسه. يعرف أنه ما جاء إلا ليقاتل دفاعاً عن ماله وعرضه. استعاذ بالله وهمّ ليغلق الباب غير أن ذلك الملكوت الرائع جمّد حركته. غمغم:

– حرام أن يهدر هذا الجمال في مزبلة.

اتسعت ابتسامتها وشع وجهها الأبيض المستدير. وجدها على شبه كبير بالسبايا اللواتي يعرضهن القراصنة في أسواق النخاسة، أقرب إلى الإيبيريات ببياضها الناصع وسواد شعرها الفاحم. ترك الباب مفتوحاً وخطا. انغلق الباب في يسر. "هكذا تحدث الأمور الكبيرة دائماً"، فكر وهو يسترخي على الحصير. تركت الملحف الأسود يسقط فأضاء جسدها ظلمات نفسه المتعبة. نسي عناء السفر الشاق والخليفة والسلطان... استسلم لطوفان اللذة الذي اجتاحه دفعة واحدة، وأقبل، بما في وسعه، على امرأة تتقن ألعاب الفراش.

لاطفته كطفل، داعبت شعر رأسه الذي اشتعل بياضاً، وبسطت له مملكة لذاتها. عب واستزاد. "شهد، شهد"، غمغم في ذروة لذته، ثم ارتخى. جاءه النوم بعد عسر، أغمض عينيه على ضفاف بيضاء متنسماً حلاوة لم يخبرها من قبل.

استفاق بعد ساعات. وجد نفسه مغطى بشرشف وسط الغرفة الحقيرة التي يملأها ضوء الشمس. النافذة الوحيدة تنتصب أمامه كشرخ في الصدر، تنفث اللهب والأحقاد. كان الجو حاراً، وخانقاً، وجسده مبللاً بالعرق. زاد من ضيقه إحساسه بالدنس. نظر إلى السقف، انتبه إلى السحام الذي يغلفه بالكامل. "آش هاذ الويل"، قال متأففاً. على لسانه ترسب مذاق مرّ. فكر في الاستحمام، لا بد له من الماء كي يستعيد طهارته، ويصلي؛ أن يولي شطر القِبلة من جديد.

لبس سروال "القندريسة" الفضفاض، وارتدى القميص الذي تعكر بياضه مع السفر الطويل، ثم مدّ يده للحزام. صرخ من هول المفاجأة: "بنت العاهرة". كان الحزام خاوياً من الدراهم الذهبية. سريعاً انطفأ غضبه. "تستحق الدراهم، هي أولى من الصعاليك"، قال في نفسه وقد عزم ألا يسأل عنها. فكر في بيع الحصان لتعويض خسارته، وتدبر أيامه الآتية في مراكش. عبَر الممر الطويل، حيث تتناسل أبواب الغرف في عتمة تغم النفس، وانحدر مع السلم. لاحظ بامتعاض أن أصحاب النزل لم يعمدوا لإصلاح منشأة شاخت أكثر مما ينبغي. في الطابق السفلي كان مستخدم الاستقبال منتصباً بابتسامته البذيئة ينظف أنفه من المخاط.

– تنوي الرحيل يا حاج؟

- ليس بعد.

فتل المخاط المتيبس في كُويْرةٍ صغيرة ثم قذفه بعيداً. اتسعت ابتسامته:

- لا بد أن تبقى. عندنا تنسى الجَملَ وما حمل.

خطا حسن مبتعداً:

- انتظر، لحظة.

مد له رزمة دراهمه ساخراً.

- خذ، عائشة تبلغك سلامها وتعتذر عن مزحتها الثقيلة.

- أعد لها الكيس. حلال عليها.

- وحلال عليك لحمها الطري يا رجل.

احمر وجه المقري فاسترسل الرجل:

- العاهرة عندنا في مراكش بألف رجل عندكم في فاس.

لم يسأله كيف عرف المدينة التي وفد منها، لعلها اللكنة التي رسخت بحكم السنوات الطويلة. هز رأسه موافقاً. بدوره كان يقدح رجولة الفاسيين ويصفهم بأنصاف الرجال والمخنثين. أضاف المستخدم:

- انتظرها بعد صلاة العشاء.

تابع بازدراء:

- لتصليا النوافل جماعة يا فحل.

- مجرد قواد.

قال المقري للرجل الذي خمد كما تنطفئ نار، ثم ارتمى في شوارع مراكش التي تلعق جراحها.

١٣

مع الغروب يرشح الصمت من سماء بعيدة، وصماء، يصير إلى إذعان تعرضه الرؤوس المنحنية، الهامات المائلة، والشفاه التي تكثر الحمد، وتقبيل الأيدي.

فاس تتألق في أوجاعها...

يورق اللظى فينكسر مع الضوء ما تبقى من رغبة عيش. لا أحلام ولا خبز. وحدهما، المخزن والطاعون، يعمران الشوارع والأزقة بالخوف، رسلهما السيف والجلادون والجرذان.

سيقت إلى العربة بثوبها الأبيض الفاخر، في كامل زينتها. جميلة أنت يا زهرة، تشبهين بدراً تكلله اللذة وسحب ناعمة. أجمل بدوت وأنت تحشرين في عربة الموت. الحوذي ظهر أكثر ابتهاجاً بغلّة المساء الجديد. ما عادت تلك الوجوه الصارمة، ذات عيون الصقور، تحرك شيئاً داخله. تمنى لو تتركين له ولو لساعة ثم يرميك، لكن دوره، كما كان أبداً، أن يسوق العربة، في كل مرة عبْر أحياء جديدة، إلى ساحة الموت، أو إلى ربض الطاعون.

تأمل ملامحها. كانت منتصبة كصفصافة، متماسكة كصخرة.

وضع يده على صدرها فاستشعر نعومة نهديها. "سبحان من صوّر"، قال يدفعها إلى جوف العربة بيد حاقدة. أقفل الباب الصغير، اعتلى كرسيه الخشبي ثم لسع الحصان بسوطه فقفز. مع اندفاعه تحرك الرنين المشؤوم لجرس العربة، التي مضت عبر الأزقة والشوارع، لتذكر المهزومين، أن هناك سلطة متعطشة للدم، تنتظر بشغف بالغ أولئك الرافضين والمتمردين الذين تسول لهم أنفسهم زحزحة الأوضاع.

جالت في ذهن الحوذي أفكار كثيرة؛ فكر في ركن العربة خارج سور المدينة. لن يلتفت إليه أحد. يمتطي ظهرها ويغرس وتده في بطنها؛ يتلهى، يتلذذ؛ يفرغ ماءه ثم يولي إلى الوديان لموالاة قطاع الطرق. كان متحمساً، وعضوه متحفزاً، لكن الخوف من السقوط في يد حراس البوابات طوى إرادته ولوى قضيبه الذي لبد في حجر سيده كقط مهزوم.

تشبثت بأضلاع العربة التي اهتزت بجنون، متماهية، كغانية تهز ردفها مع إيقاع الطبال. شعرت بالسعادة والفخر. كان لها أن تنتقم لأبيها وتذل خصمه وغريمها الذي لن ينساها أبداً. استعادت وجهه الباكي وعويله الذي جاء كولولة امرأة فقدت العزيز والمعيل. نظرت إلى وجهه بازدراء: "يا لجنون الحياة، كيف تمكن هذا الخراء من رقاب الناس؟". أسرعوا له بالطبيب الذي ذهل لمّا رأى خصيتي سيده بين يديه.

– اللعنة، آش هذا؟

– بيضتان للقلي.

قالت شامتة تضحك. رد بجنون مباعداً بين فخذيه:

– خذوا القوادة بعيداً، خذوا بنت...

– ذق ممّا جنت يداك يا كلب.

ردّت وهم يسوقونها إلى خارج رواق الخليفة. كاد المملوك الذي يمسك بها أن يثني على فعلتها. في نهاية الرواق كان سعد السعدي واقفاً ينظر إليها بإجلال. وجد فيها شبهاً بالغا بحبيبته التي تخلى عنها في إسبانيا.

قالت لها مروضتها يوم ألحقت بجناح الحريم دون أن تكون لها صفة بعينها:

– ألم أقل لك ألا ترفضي خطبة الخليفة؟ جنيت على أهلك وجلبت عليهم الخراب. ما كان قصر والدك ليترك، ولأخيك أن يشرد، ولا لأمك أن تسترق.

– هو يزرع الخراب لا أنا، ولسوف يجني غلته.

وضعت المرأة الستينية يدها على فم زهرة:

– لا تتفوهي بحماقات يا ابنتي كي لا تؤذي نفسك. سلمي تسلمي.

انتصبت، داعبت شعر الصبية برفق:

– لا تتمنعي، قدر المرأة أن تذعن للذي هو أقوى.

– الله القوي.

– القوي هنا هو الخليفة.

لحظتها بالضبط خطر لها أن تنتقم، إذا مست هذا الإله في مكمن ذكورته فلسوف تفقده سطوته.

- لا بأس، ليفعل ما شاء.

ضحكت السيدة وقد أفلحت في مهمتها. وعدت الصبية بالخير العميم والعطايا:

- كلما منحته أكثر كان معك أكرم.

على السرير، وهما عاريان تماماً، طلبت منه أن تداعب عضوه بلسانها. أبهجه أن تلين معه وهو الذي ترّك أموال أبيها. همس في أذنها مداعباً:

- دين عليّ أن أعيد لأبيك كل ما فقد.

ظهر عضوه منتفخاً، متعجرفاً، محتقناً بالدم، على شبه كبير بصاحبه. هدهدته بحنو فازداد اهتياجه. شجعها بحركة من رأسه فمدت لسانها. كان حذراً، شيئاً فشيئاً تخلى عن حذره، ارتخى على وقع اللذة التي اشتعلت.

أغمض عينيه وتأوه. كانت بطنه منتفخة، ممتلئة وقد ابتلعت مصائر آلاف الناس، مستريحة في لون قمحاوي فاقع. لم تتردد زهرة المقري، أمسكت عضوه بيمناها، تأملت للحظة الأنبوب الأسطواني المتصلب، الرشيق كساق خيزران. رأت فيه السلطة والمال والشهوة؛ رمزاً مخزنياً ما ينبغي له أن يترك خلفاً. التقمت خصيتيه برشاقة قطة تربّصت بجُرَذ دهراً، سحبتهما إلى داخل فمها، ثبتتهما بين أسنانها بإحكام تام، ثم انتزعتهما من محجرهما بشراسة لبوءة، فتدفق الدم برائحة مياه الصرف.

تداعى العضو المنتفخ كديك مذبوح، ترنح، ثم هوى، تحول إلى قطعة جلد ذابلة غطست في دم صاحبها الذي ولول مفجوعاً

بتمزيق لواء ذكورته.

نظرت في عينيه بما أمكنها من حقد، ثم بصقت خصيتيه على وجهه. نسيت جسدها العاري واستمرت منتصبة أمام الرجال الذين هبّوا العتق سيدهم. انبهر حراسه بجسدها الملائكي، فابتلعوا ألسنتهم، أما الطبيب فقدر مأزق سيده: "لن يطول بك المقام في كرسي الخلافة يا سيدي ويا مولاي بعدما صرمت مملوكتك حبل فحولتك".

في صمت أول الليل تناهى الجرس المشؤوم، لعربة الموت، نشطاً متحفزاً، إلى مسامع حارس الربض والمقيمين. فتح علي المراكشي نافذته الصغيرة وتابع الشاب، الذي ساق والده إلى حتفه ذات موت، تحت ضوء فانوس العربة، يترجل من على كرسيها باختيال، بدا في الظلام مثل شبح بقامته المفرطة في الطول، ونحافته المعيبة. فتح باب العربة، أمالها إلى الأرض حتى تتقيأ حمولتها، وانتظر إلى أن فتحت البوابة ليستقبل الربض زائرة حلت بتوصية إكرامها.

قرأ علي المراكشي الورقة المختومة تحت نور الفانوس ثم تطلع في وجهها البدري الجميل. "يا لروعتك"، قال في نفسه، ثم نفض رأسه ليطرد تلك الدمامل اللعينة التي رآها تكتسح بشرتها الوديعة. عاد إلى سطور الورقة المكتوبة بخط عثماني، قرأ بصوت جهوري لا يخلو من سخرية: "وتُتْرَكُ بين المصابين، محرومةً من الغطاء والطعام، إلى أن يتقيح جلدها، وتذهب عزيمتها، فلا يزورها قريب، ولا يعودها طبيب، جزاءً لها على سوء صنيعتها، وليقضي الله أمراً كان مقضياً". ردد هازئاً: "ليقضي الله أمراً كان مقضياً". سألها:

– ما رأيك في ما قضوا؟

ظلت صامتة، شامخة، غير مبالية. انحنى إجلالاً، ثم مزق الرسالة ونثر ندفها تحت قدميها: "إلى الجحيم أيها الأبالسة، أنتم وبنوكم ومن والاكم". قال بحقد. خطا متمهلاً فتعقبته على هدي ضوء الفانوس الخافت. حاولت أن تستبين ملامح هذا المكان الواجم، حيث يطفح الظلام بالخوف والريبة كما تطفح أجساد ضحايا ربض الطاعون بالقروح والدمامل. كان كل شيء مغلفاً تماماً بالظلام، السواد يجثو على كل شبر شبيهاً بالعدم، أما نور الفانوس فيأتي كضوء كسيح، ما يكاد يفارق موطئ القدم حتى يتلاشى.

وقف الحارس فهدأت ذؤابة الفانوس وسكنت الظلال الواهنة. في صدرها وقر إحساس بالسكينة. سمعت قرقعة القفل ثم أزيز المزلاج. انفتح باب قصديري صغير. دلف إلى الداخل فتبعته دون تردد. أشعل شمعة فظهرت تفاصيل الغرفة أكثر. أمكنها أن ترى طنفسة في حال جيدة، ومخدات محشوة، فمنضدة صغيرة صُفت عليها كتب وأوراق ومدواة. التفتت إليه متسائلةً فبادر:

– هذه غرفتي يا بنيتي، أبيت فيها من وقت لوقت، امكثي هنا علها تهون عليك محنتك إلى أن يفرج الله كربتك.

باغته خبط عنيف على بوابة الربض. ارتاع... بلا إبطاء أمرها أن تطفئ الشمعة وتلزم الصمت إلى أن يعود. "لعلهم قوادو المخزن"، قال، ثم غادر على عجل يحمل الضوء الكسيح. تابعت الرجل يأفل في الظلام كبقية من أمل. بصقت على الأرض، طعم دم الخليفة لا يزال عالقاً في فمها.

١٤

لاهثاً قرع باب الربض، ولما لم يجبه غير الصدى أعاد القرع كرّاتٍ، أعنف فأعنف، قبل أن يشرع في ركل الباب بهياج يضاهي هياج الليل في اسوداده.

فتح الحارس نافذة غرفة المراقبة أخيراً مطلا عبر القضبان بارتياع. صرخ يكاد قلبه يقفز من صدره:

– شكون؟

توقف الخبط على الباب. كان الليل قد جنّ سواده في ليلة بلا قمر. أطلق بصره فلم يرَ شيئاً. كان المملوك الأسود كقطعة ليل.

– أنت علي؟

– أنا هو. شكون أنت؟

حملق علي المراكشي في الفراغ ولمّا تعذر عليه أن يلمح شيئاً قرّب الفانوس من قضبان النافذة. ظهر الرجل الزنجي بقسماته الإفريقية يتقدم مشدود العضلات. تنفس علي المراكشي بارتياح. لم يكونوا رجال المخزن كما خمن.

– اللعنة. ماذا تريد؟

– رسالة من حمام الأكابر.

في وهج الفانوس الخافت لاح وجه مبارك العظم بعبوسه وحقده على المخزن. لا تزال كلمات رفيقه ترن في أذنه يوم تعاهدا على بتر أطراف الجسد المتعفن، "لا بد أن يقطع الطاعون أوصال المخزن. هو حليفنا اليوم لسحق السعديين". أقسم مبارك العظم مراراً على الانتقام لأبيه الذي قتل لرفضه تدليك قدمي صاحب الشرطة. ثبته أربعة رجال في إحدى غرف حمامه الباذخ، ثم غطسوا رأسه في دلو ماء يغلي إلى أن قضى مختنقا. قالوا لزوجته إنه لفظ في سقوطه على أرضية زلقة. أجابت ساخرة من نقل إليها رواية المخزن: "نصحته زمناً ولم يأخذ بنصيحتي. قلت له أن البيت الذي تدخله الأفاعي لا بد لصاحبه أن يموت مسموماً مهما طال عمره". جِلْدُ وجه ياسر العظم المسلوخ وأثر أيدي رجال المخزن على أطرافه كشفا لها الحقيقة قبل أن تتناقل الألسن تفاصيل ما جرى. احتفظ مبارك بالدلو، بإيعاز من أمه، بعد أن أقسم لها أن يأخذ الثأر لأبيه متى سنحت الفرصة.

مد علي المراكشي يده عبر قضبان النافذة الصغيرة، سحب الرسالة، ثبت الفانوس، ثم قرأ على عجل: "الخاتم على وشك". غمس الريشة في المدواة. كتب بيد لا رعشة فيها: "زواجاً مباركاً". ثم أعاد الرسالة إلى الزنجي الذي كان في الانتظار.

– ما اسمك؟

– المختار سيدي.

– ارجع يا مختار إلى سيدك بأسرع مما قدمتَ.

اختفى الزنجي، امتصه الليل، في الخطوات الأولى، من أمام

بوابة ربض الطاعون، وبصقه في الجهة الأخرى، على مدخل حمام الأكابر. كل شيء، هنا، متعطش للموت، حتى الليل تفحم ليستر، حتى القمر لجم نوره ليُمَكن. تتواطأ الأرض والسماء والناس كي تتمتع فاس بقتلى جدد؛ بأحزان ودماء.

تأمل علي المراكشي تلك الكتلة المتدفقة من السواد. كان الصمت مطبقاً، لا نقيق ضفادع، لا حفيف ولا عواء. وكان الصمت ماجناً، أقرب إلى الخواء. يبس الجفاف والطاعون والحقد منابع الحياة، وترك الأرض اليباب بكماء تخب في العمى.

شعر علي بالمزيج ذاته يعاود التفتق كوردة سوداء تتفتح في الصدر. إنه الإحساس الذي يتكرر كلما رفع المنجل ليبتر قطعة من عدو يتبرعم باستمرار. نفذ عمليات كثيرة؛ في مخازن الحبوب والخمارات وداخل القصور. كان له في كل مكان شركاء يتكاثرون كلما اشتدت قسوة المخزن وطالت سيوفه رقاب الناس وأرزاقهم. شيء من التهيب والبهجة تتركّل في صدره، بفرحة طفل حركت مجريات معركة صغيرة عواطفه. أقفل النافذة بهدوء، ثم تيمم وجهته بمعية زمرته. يخرجون بمرونة القطط وصمت الأفاعي، ويعودون كأشباح؛ رجالاً بلا لون ولا شكل ولا رائحة.

كان ياسر حي منشغلاً بتصفح كتاب **المقدمة** لابن خلدون تحت ضوء شمعة، رفيقاه مضطجعان على ظهريهما يصغيان لعزف أحمد بلانكو الذي انشغل بتجريب ناي صنعه من قطعة قصب أهداها له علي المراكشي لذات الغرض.

دخل علي بلا استئذان فانتصبوا. قال يستحثهم على الإسراع:

– حمام العرصة.

– الخاتم على وشك.

رد ياسر حي وقد أبهجه وقوع الجرذ في شرك اشتغلوا على نصبه لأزيد من شهر.

– الكلب لا يقاوم العظمة يا ياسر.

لفوا العمائم على وجوههم وانتعلوا أحذية "إيدوكان" على نحو معكوس كي يضلوا متعقباً مفترضاً، ثم هرولوا بخفة إلى البوابة التي انفتحت بيسر، دون أزيز، متواطئةً مع ملائكة الدم.

١٥

بخار الماء يملأ الغرفة الواسعة، والأرضيةُ الرخامية لحمام الأكابر الفاخر تنفث الدفء ورغبةً في الارتخاء... تغيب الجدران المزينة بالزليج الفسيفسائي الذي ثبتته أيد موركسية مرهفة وبائسة، ومن السقف يتدلى فانوس مزجج كبدر تكلله السحب. تأوه صاحب الشرطة مع اليد الناعمة التي استمرت تدلك عضلات ظهره صعوداً ونزولاً...

– إنّ ليديك لطراوة.

قال لها بكسل. كان وجهه إلى الأرضية الرخامية يتشرب دفء نار الحطب المشتعل من تحت. ملأ رئتيه بالدفء. حمام "الأكابر" يصلح للاغتسال من دم البؤساء، في كل مرة يخرج منه أكثر تخففاً وقدرة على ارتكاب جرائم جديدة. تنهد:

– اشتقت لك يا ربيعة.

– أبعدَ الذي بدر منك يا محمد بن مسعود؟

التفت إليها. وجهها الجميل، المستدير، يغيب خلف طيات البخار الكثيف. جاء صوتها يابساً كما لم يعهد من قبل. ودّ أن

يوبخها على تلفظ الاسم جافاً. "حميدو" هكذا ألف أن تناديه مداعبة، لكنه عدل، لا يريد أن يقع في الخطأ ذاته مرتين. غاب صوتها عن قصره الفاخر، المشيد في فاس الجديد، لأزيد من شهر، إثر طيشه، فأظلمت حياته. حاول محمد أن يقاوم فراقها أسابيع طويلة، وهو الذي باع جاريته الأثيرة بيده عقاباً لها على عنادها، ففشل. اكتشف متأخراً أنه ما كان يعاقب غير نفسه. هو من كان محتاجاً إليها.

فكر أن يعتذر لها، غير أن أمرها ليس بيدها، هي الآن في ملك صاحب الحمّام. صحيح أن باستطاعته أن يقتل مبارك العظم كما قتل والده، لكن الأمر سيزيد الوضع تعقيداً، لا بد أن تصير ممتلكات العظم في حوزة الخليفة، ساعتها لن يكون بمقدوره حتى التطلع في وجه حبيبته.

أجاب ملاطفاً، مستلذاً بحسن تدليكها:

– مجرد غلطة عابرة يا ذات الحسن.

تأمل البخار الكثيف، لاحت له البحار التي امتطى فروّض، والحروب التي خاض فمهّد. قاتل لأجل بطولته في عالم موحش وبلا رحمة. موت الآلاف كان مبرراً ومنطقياً ومحسوماً كقدر، لأنه السبيل الوحيد أمامه لينقل من محتقر إلى بطل. في كل مرة يقطع بسيفه الرقاب في شعاب المعارك يرى دم قتلاه متدفقاً في نهر يحمله إلى المجد. كلما سال الدم بغزارة أحد إلا ودفع قاربه إلى معانقة الآفاق.

وخزته ربيعة:

– تبيعون لغضب عابر، وتقتلون لنزوة، وتستعبدون شعباً إرضاءً لرغبة. أنتم...

استغرب لقسوة كلمتها. "لعلها ثورة أنثى جرحت في كبريائها"، فكر. رفع رأسه مجدداً، تأمل البخار أعمق فلاح له ظل؛ طيف وجه تغلفه هالات بيضاء. اهتزّ.

– ما هذا يا ربيعة؟

– ماضيك يا محمد، ماضيك يا صاحب الشرطة... وما قدمت يداك.

زأر وقد استشعر وقوعه في الشرك. بدل اليد الناعمة حطت أيد كثيرة، امتدت إحداها إلى فمه، وتكفلت أخرى بتوثيق أطرافه بإحكام، تلوى كأفعى ليفلت، تركّل، ضرب رأسه على الأرضية الرخامية كثور مذبوح، ثم استسلم مع البخار الذي تراجع ببطء كاشفاً عن وجوه كثيرة. ظهرت المرأة التي تجلس لصق الجدار وعلى يمينها دلو أسود بالٍ. ظلت هادئة، لم تأت بحركة ولم تصدر صوتاً. تنفست بهدوء وانتظرت إلى أن يستكين. كانت، بوضعية جلوسها، أقرب إلى ساحرة، تضع كفيها على فخذيها وتدفع صدرها الحاقد إلى الأمام، تتدلى ضفائرها المشتعلة شيباً لتبث الرهبة في النفس. قالت تنظر في عينيه:

– تتذكرني يا محمد؟

همس عصام الأنصاري في أذنه:

– إياك والصراخ، إن فعلتَ بقرتُ بطنك.

أفلتت اليد فمه. تحدث لاهثاً:

- شكون أنت؟

- لن تتذكرني يا محمد، أعذرك، فضحاياك كثر، وذاكرتك غلفتها الدماء.

أشارت السيدة الخمسينية لابنها فأوثق قدميه بخفة مع حبل تدلى من السقف، سحبه ياسر حي إلى أعلى كما يُفعل مع الذبائح الكبيرة استعداداً لسلخها. تأرجح فثبتته ربيعة واضعة كاحلها على بطنه.

- أنا زوجة العظم يا كلب، ذاك الذي أمرته بتدليك قدميك فرفض.

تدخل ابنها:

- وفي هذا الدلو احترق وجه أبي قبل أن يموت مختنقاً...

تحدث علي المراكشي وقد كشف وجهه:

- أما نحن فشهود حفلة القصاص؛ الشياطين التي تخرج ليلاً، من الحيطان، لتقبض أرواح الظالمين.

رد صاحب الشرطة وقد أذهله أن يكون حارس ربض الطاعون من المتمردين:

- خنتنا يا علي إذن.

- خنتم من قبل شعب بأكمله يا محمد، وفي خيانة من خان وفاء.

- أو لم تسمع: "لا تخن من خانك"؟

- لو خنتني لسامحتك، الأمر أكبر من هذا، لا بد أن يسقط الطغاة حتى يتسنى لنا العيش في السلام.

ضحك صاحب الشرطة بمرارة:

- تحلمون، بعد كل جلاد يولد جلادون أشد.

- لا بأس، ويولد معهم ثوار يصطادونهم في الحانات، والحمامات

كما ترى، وفي قصورهم المنيعة.

جاؤوا بالماء المغلي، ملأوا الدلو فارتاع صاحب الشرطة وأجفل. مررت ربيعة يدها على ظهره. أحست بالأسى، رغم كراهيتها له، تمنت ألا تشهد نهايته المخزية. شعر بيدها باردة، باردة كالسم:

– لا تجزع يا "حميدو"، لا بد لك أن تشرب من الكأس التي سقيتني منها، وسقيت منها عامة الناس. إنه قدرك... أزفت نهايتك فواجهها باستبسال.

جعلوا الدلو تحت رأسه، ثم أنزلوه ببطء إلى أن حاذى شعرُ رأسه الماء المغلي. من غرفة الحمام المجاورة فوجئوا بأحمد بلانكو يعزف على الناي. كان عزفاً شجياً، حزيناً، غاضباً ورافضاً للعبة الموت.

١٦

تمددت زهرة على الطنفسة، وضعت رأسها على المخدة. "أيام معدودات قلبت حياتي؛ نقلتني من حرة إلى أَمَة، ومن قصر إلى محبس"، غمغمت تفكر في شدة الريح التي عصفت عاتية على بيت والدها فأحالت عمرانه خراباً. تنفست بعمق وهدوء. كانت راضية كل الرضا على صنيعها، مقتنعة بأداء الضريبة مهما بلغت كلفتها.

"دنيا الخراء"، قالت وهي تفتح دفتي النافذة صباحاً. كان جسدها مبللاً بالكامل. كوابيسُ كثيرة، ومتواترة، شابت نوماً عسيراً ومتقطعاً. رأت في منامها والدها يمضي في بحر لجي. نادت عليه فلوّح لها مبتعداً. لما ألحت في النداء أشاح عنها، ثم قابلها بظهره، حيث انكشف وجه ثان قبيح ومشوه.

اندلقت الشمس عبر النافذة لتملأ الغرفة بضوء كامد. تنفست بصعوبة. مشهد الأسوار العالية أشعرها بالاختناق. "كل شيء يأتي على شاكلة أصحابه"، فكرت. جالت ببصرها. لم يكن ثمة غير شريط متعرج من الأكواخ وساحة تتوسطها صخرة ضخمة مغطاة ببراقع.

إنه الجحيم.

- ماء...

نادت بصوت خافت. لم يرد عليها أحد. تذكرت الرجل الذي جاء بها ليلاً إلى الكوخ. دون تبرير منطقي، وقرّ في صدرها حدس أقرب إلى اليقين: "لن يعود أبداً. مات أمس". بحثت عبثاً في الغرفة عما تبلل به رمقها. "لا جدوى". تحت المنضدة لمحت سكيناً مهملة. مدت يدها: "لم لا؟ موت بشع، وسريع، ينسخ موتاً أطول وأبطأ". اتكأت على الجدار الطيني، مددت يدها مبسوطةً على فخذها، وضعت الشفرة على معصمها ثم أخذت نفساً عميقاً. في ذاكرتها غرقت وجوه كثيرة تباعاً، وكان وجه أمها آخر الوجوه التي استنجدتها أن تتشبث بالبقاء. نفضت رأسها: "عفواً يا أمي، آسفة، حياة مسقية بمياه الصرف لا تستحق الكفاح". تسارعت دقات قلبها، ثم تسلقتها الرجفة، وضعت يسراها على فمها وقبل أن تضغط على السكين انبرى من الصمت عزف هادئ، وديع، على آلة ناي. فتحت عينيها. أفزعها اهتزاز ساقيها. تركت السكين تسقط. تمتمت: "ليس بعد يا زهرة، ليس بعد".

ذكّرها العزف بشيء مضى؛ تذكرت أن والدها كان يعزف على الناي في زمن غابر. إيقاعات مختلفة يوحدها الحزن، ويغلفها الأسى، وذلك الخوف المتنطع مما يواري الزمن. انتصبت بصعوبة، داهمها دوار وغثيان: "أينك يا أبي أم تراك مثلي مغلوب على أمرك؟". قصدت الباب، انزلقت إلى الساحة فاستشعرت مقداراً هائلاً من الجفاء؛ شمس حارة تكوي وأرض عاقر لا ترحم.

جلس أحمد على عتبة باب الكوخ المقابل ينفخ في القصبة

أحزانه. شعر بالضياع يتعمق أكثر وقد انفرط العقد الذي جمعه برفقائه الجدد. عاد وخز التهجير لينكأ الذي كان. نظر إلى أعلى. على رأس جبل "زالاغ" كانت ندف سحب تلطخ وجه السماء كما تلطخ بقع قيء قطعة من رخام أزرق. سرح بعيداً مع لحن الرفض؛ مد وجزر وخيوط رفيعة تصف حال أرض جنحت إلى التيه.

ما زالت مقاطع من الليلة الفائتة تتكرر بعنفها وفظاعتها أمام عينيه. لن ينسى ذلك المشهد البائس لرجل معلق ككبش، بوجه مسلوخ. دخل غرفة الحمام استجابة لنداء ياسر حي. ارتاع وهو يتابع مبارك العظم يبول على وجه صاحب الشرطة المسلوخ. تدلى الجلد على أرضية الحمام كفروة كبش مخلفاً وجهاً أحمر. صرخ في وجه مبارك ثم دفعه فانطرح على الأرض.

– اللعنة، ماذا تفعل؟

تدخل علي المراكشي فأطلق على صاحب الشرطة رصاصة في الرأس.

– لا تجزع يا أحمد، هذه الكلاب لا تستحق الرحمة.

نفر الدم غزيراً عبر الثقب الذي أحدثته الرصاصة فوق الأذن وسال في خيوط عبر الأنف والفم. تزامنت حشرجة الموت مع خرخرة البالوعة التي امتصت روحه.

غادرت المرأتان عبر الباب الخلفي للحمام. كانت ربيعة فرحة. حصلت على حريتها كما وُعِدت. "تصيرين حرة فور دخول بن مسعود إلى الحمام، ولك مني ما يكفيك الفاقة بقية عمرك". قالت لها زوجة العظم. لم تفكر. الثأر من صاحب الشرطة مكسب لها كما

لغيرها. مدت يدها، صافحت سيدتها وقد تطلعت لحريتها التي لا بد أن تتحقق على جسد طاغية.

مرّتا عبر المقبرة متلفعاتٍ بالسواد. كانتا كغرابين وهما تمضيان عبر باب أبي الفتوح إلى أزقة فاس البالي الذي يحتضن الأوجاع والبؤساء والطاعون. وفي باحة البيت كان ثمة سائس ينتظرهما لينقلا إلى مدينة مكناس. كان ابنها قد نقل كل ثروته إلى المدينة الأخرى، باع البيت والمتاجر في سوق الدباغين وأجرى مبادلات بأخرى في مدينة مكناس. أعدّ جيداً لكل التفاصيل، حتى أبناءه نقلهم خفية فرادى حتى لا يثير شكوك رجال المخزن.

"ينعل أبوكم"، ارتفع صوت المخزني الذي اقتحم الحمام رفقة صاحبه وقد جاس خاطره من تأخر سيده أكثر مما يلزم. راعه مشهد رئيسه. صوب إلى صدر علي المراكشي فانطرح مسجى بدمائه. ركضت البقية فركض يلاحقهم. من خلفه جاءت رصاصة غادرة أرغمته على التوقف. تابع المتمردين مذهلاً يختفون عبر دهليز الحمام الطويل، ثم استدار ليرى قاتله. كان ميمون الراضي يقف ببرود وبندقيته ما تزال مصوبة إلى زميله.

– ما كان عليك أن تتدخل. لا بد لهم أن يواصلوا قنص الغرابيب.

اشغل ميمون الراضي كمخزني مكرهاً ليدفع عن أسرته أذى العسكر الذين سبق لهم أن قتلوا أخاه عبد الواحد لمّا رفض أن يؤدي الضرائب الجديدة التي فرضتها الدولة على الفلاحين. كان الزمن حينها أجمل، فالفدان من الأرض يعطي أطناناً من القمح والشعير مثلما تثمر الشجرة الواحدة بأضعاف ما تعطيه الشجرة في أراضي

إيالة الجزائر. استكثر الولاة والقواد عطاء الأرض على فلاحيها وساروا على سيرة السابقين. سنوا ضرائب جعلوا لها أسماء ثم انطلقوا في تمشيط المحاصيل. لم يكن من خيار أمام الفلاحين إما الإذعان أو الموت. اختار عبد الواحد أن يواجه، وكانت طريقته في المواجهة مستفزة للقائد. جمع الغلال أمام باب البيت، وضع أكياس القمح والشعير والذرة ودزينات الصفوف الواحدة فوق الأخرى، ثم استدعى رجال البلدة ليشهدوا على فعلته. أضرم النار في المحصول أمام دهشة الناس، لما سألوه عن السبب أجاب بلا تردد: "المحصول الذي سيذهب إلى خزائن المخزن النار أولى به". في نفس اليوم شوهدت ألسنة اللهب وهي تتصاعد بمقربة من عدة بيوت اقتدى أصحابها بعبد الواحد الذي سيق مكبلاً إلى بيت القائد حيث أطلقوا عليه الرصاص ورموا جثته للكلاب.

لم يجد ميمون الراضي من سبيل ليدفع تهمة التواطؤ مع أخيه غير قبوله ارتداء الزي المخزني. وكانت أولى بركات هذا الزي أن كان بمقدوره أن يحمل ما تبقى من جثة أخيه ويدفنها في المقبرة.

أطلق ميمون على صاحبه الرصاصة الثانية فخرّ على ركبتيه. نظر الصريع إلى بطنه التي كانت تنفر دما، ثم إلى يده التي استمرت تقبض على البندقية. جاهد ليرفعها، لمّا عجز بصق في وجه زميله وانقلب على ظهره. حمل ميمون جثة علي المراكشي إلى قاعة الاسترخاء، غطاه بفوطة بيضاء، قرأ عليه بضع آيات، ثم قصد مركز الشرطة ليخبر قادته بمقتل صاحب الشرطة والمخزني في كمين محكم دبره العظم في حمام الأكابر.

١٧

"قبلتني بعمق فتلاشى كل همي وكربي. شعرت بطراوة شفتين غضتين تحطان على شفتي، بأنفاسها دافئة، ورائحة جسدها الجيلية تغمرني. استسلمت لقبلتها الطويلة، كما يستسلم رضيع جائع لثدي مدرار، ثم مددتُ يدي إلى ظهرها لأضمها إلي. لم أسأل نفسي من تكون، من أين أتت، كل ما كنت في حاجة إليه هو صدر رحب يمنحني، في تيهي، شيئاً من الحنان، ووطنا بديلاً".

استرخت على الصخرة عاريةً تماماً، واثقةً من نفسها، غير مكترثة لغريب يتلصص أو قريب يحتج. كان بياض جسدها مشعاً تحت نور القمر، يتلوى شعرها الفاحم الطويل عابراً، كَوَادٍ، وهادها، وصولاً إلى المنبع؛ إلى مكمنها. تنفس هو بعمق متلذذاً طعم لحظة سخية جاد بها الزمن. هام في السموات، حلق كطائر بالقرب من النجوم، وتمنى لو امتلك جناحين، لكان بإمكانه أن يطير فعلياً، لا في الخيال وحسب، من جبل إلى جبل، ومن أنثى إلى أنثى، كنحلة يمتص الرحيق ويواصل الطيران.

غفا فأيقظته:

– كفى، اتبعني.

ارتدى ملابسه على عجل ثم تعقبها. نظر إليها من خلف. انتبه لطول قامتها وتماسك عضلاتها، ومشيتها التي تعكس ثقة عميقة في النفس. ضاجعته دون خوف ولا تردد. أيقن أنه في عالم مختلف تماماً عن الذي وفد منه. "لا بد أنها عرفت رجالا كثراً"، فكر باستياء. دخلت بيت عابري السبيل، أشعلت شموع الشمعدان الذي غطى ضوؤه المكان كاملاً. وضعت الطبق الذي جلبته معها على طاولة ثلاثية القوائم. تفحصت الغرفة: حصير الدوم نظيف، المخدات والبطانيات جيدة التصفيف، خابية الماء ممتلئة حتى النصف محمية من الحشرات بالقطران، والمصاحف مركونة في كوة بالجدار. "تمام" غمغمت. وهمّت بالخروج. استوقفها:

– إلى أين؟

– أما أنت، فاتبعني.

اختلج صدره وتعقبها بخفة طفل وقد جال بخاطره وصال آخر. سألته دون أن تلتفت إليه:

– ما اسمك؟

– حامد.

– سأناديك "محند". هكذا نسمي الذكور عندنا.

حاول أن يشرح لها:

– "محند" تحريف لكلمة محمد. فعل البربر كما فعل الأفارقة الذين حرفوا محمد إلى "ممادو"، وأحمد إلى "أمادو". فضلاً عن كون الاسم جزءاً من كينونة الفرد، لا يبدله ولا...

رفعت يدها فألزمته الصمت:

– أنت هنا، في جبال الأطلس يا صاحبي. وفي الأطلس نحن النساء من يقررن الذي يجب، وما لا يجب. أتفهمني يا محند؟

تذكر كذلك أنها كانت أقوى منه لما جامعَها، وأشد تماسكاً منه. كان بالفعل وديعاً كأنثى بين يديها. انحدرا بضع مئات من الأمتار، وقبل أن يعاودا الصعود في الجهة الأخرى استوقفته. أشارت إلى أعلى المرتفع، حيث بُنِي بيت كبير يحيطه صور عالٍ مطلي بالجير، على حوافه منحدرات صخرية عميقة.

– هذا بيت أمي.

فغر فاه فاسترسلت:

– ما إن تدخل حتى تقبل يد أمي، ورأس أبي، وإذا سألوك عن اسمك فأجب بما أسلفت.

مدت يدها إلى وجهه. قالت بنبرة لا تخلو من هزء:

– لديك بشرة طفل.

– ولديك عضلات محارب.

– أنا كذلك بالفعل. خضتُ حروباً وقتلت رجالاً بلا حصر. أهل فاس أنصاف رجال.

تذكر الخليفة واستقواءه على عامة الناس، تساءل أيكون أهل فاس كما يصفونهم بالفعل؟ تكلم كأنما يحدث نفسه:

– أنا من أهل فاس.

– أول ما تعلم الجبال لزائرها عزة النفس، ومن عزة النفس ستأتي البقية...

قهقهت وتابعت طريقها عبر مسلك ضيق، تبعها من خلف مزدرياً

بحاله وانتمائه ونصف الرجولة التي يحمل. سارا عبر خط متعرج، انتهت الأشجار فظهرت أسوار البيت ينيرها ضوء قمر منير.

قبل ساعات ما كان ليتصور مآلاً مشابهاً. أطل من الشرفة العريضة التي خصصت له فانكشف تحت ضوء القمر عالم فسيح تتوالى فيه أشجار السرو كأبيات قصيدة محكمة القافية والوزن. تنسم عبير الجبل، الهواء المترع برائحة البرية وخشب الأرز، ثم استعاد مجريات الأحداث. "أي جنون؟" قال في نفسه قبل أن يتناهى إليه قرع خفيف على الباب. دخلت خادمة سوداء البشرة، مجدولة الشعر، تحمل ملابس نظيفة، عرضت عليه الاستمتاع بحمام ساخن قبل الخلود للرائحة. ودّ أن يسألها عن عادات أهل البيت، وكيف يستقبلون الأغراب. أحجم تاركاً معرفة البيت وأهله للأيام. صار خلفها عبر مجاز طويل، تتوزع فيه فوانيس كثيرة، ملتصقة على الحيطان كبومات من نحاس. انتهى أخيراً إلى حجرة مربعة يتوسطها صهريج امتلأ بمياه دافئة ومقاعد خشبية بعضها للجلوس وآخر للاسترخاء.

مذهلاً نزع ملابسه القذرة، مد قدميه داخل الصهريج فأحس بلسع الماء على جلده. انزلق دفعة واحدة واستكان ليستأنس بالسخونة على عادة أهل فاس في حمامات "مولاي يعقوب". بعد لحظات كان قد استرخى تماماً، أمكنه أن يتنفس بهدوء، في السقف تتوالى أعمدة من الخشب الصقيل، يتوسطها فانوس ضخم، على الجدران مرافع صفت عليها مناشف بيضاء، وعلى مناضد صغيرة، وصقيلة، وضعت زيوت الدهن والسواك والغسول... أيقن أنه في حضرة أناس أكابر لم يطرق الجوع بابهم، ولن يجرؤ.

١٨

جال كثيراً في شوارع مراكش، زار صومعة الكتبية، جنان الصالحة، وساحة جامع الفناء، ثم انقلب إلى الأحياء الشعبية حيث تظهر أعراض الوباء بجلاء؛ منازل كثيرة قضى جميع من فيها فسكنها الخراب وعمرتها الغربان، أخرى هجرها أصحابها قاصدين الجبال لعلها تجود بما شحت عليهم به المدينة بعمرانها. دورٌ متلاصقة، متداخلة، تذكره بقطعان الخراف لمّا تتزاحم وقد استشعرت خطراً. لون طلاء الواجهات عكر، كلون السماء التي يلوثها القيظ وأحزان الناس.

مراكش قطعة من نار...

إحساس جارف بالتيه. ما كان بحوزته قبيل أيام بات مجرد وهم. انهار عالمه المكين بغتةً وما تبقى بين يديه لا يكفي لتضميد الجراح. الحقيقة الوحيدة التي عليه أن يتقبلها، كما هي، أنه صار بلا بيت، ولا مورد رزق، ولا أسرة. لا شيء على الإطلاق، لا مقصد، لا غاية، حتى السلطان الذي جاء في طلبه غادر مراكش يوم دخوله إليها يقصد فاس. حلقة مفرغة تبدأ بشمس تلفح وتنتهي إلى ليل متعثر. تهب رياح الشّركي حارة، يتطاير الغبار في زوابع تحمل معها الأحلام الصغيرة،

وما إن تخمد، بانطفاء الشمس، حتى ينزل الصمت قبيحاً، ثقيلاً، كسواد الليل؛ يُعمّق الإحساس بالضياع.

تذوق للمرة الأولى طعم الزمن الراكد الذي يجعل من البشر والأشياء نسخاً متشابهة. وجوه الناس صارت إلى تماثيل من صلصال، متشققة كتربة الأرض اليباب، مفرغة من المعاني، وبعيون شمعية جوفاء. طعم مر كالعلقم، برائحة الروث، يترسب في النفس بارداً كالسم، يدفع المرء إلى الهذيان.

مراكش تلهث، تمد لسانها الطويل، الكالح، على طول الشوارع والأزقة والدروب، لا ماء، لا آمال ووجه سماء احترف الوجوم على مدى السنوات العجاف. كف كثير من الناس عن الخروج ليموتوا في بيوتهم. كم هو مخز، ومحزن، أن يموت المرء على رصيف ولا يجد من يكرمه بدفنه. الذين تجاسروا على الخروج علقوا على صدورهم أسماءهم وعناوين بيوتهم حتى إذا داهمتهم المنية وحالف الحظ جثثهم أمكن لهم أن ينعموا بقبر خاص.

"سر يا حسن، كبصير أعمى، سر، لا تلتفت إلى الخلف، واترك لساقيك أن تعانقا رياحاً محملة بهزائم الأجداد. سر اتفاقاً، أو على هدي الشيطان حتى، كما تسير نعجة لا بد لها تنفق على شعاب بلا عشب".

من بعيد يظهر جبل "كيليز" بناصية يكتنفها السواد، مكتئباً، يحمل ذاكرة تجتر أمجاد الموحدين. يفتح صدره كل يوم لينفخ الزوابع على مراكش التي ضاق صدرها بأهلها دون أن تجد منهم فكاكاً. خلفه، وعلى مسافة بضع مئات من الأميال، تبدأ الصحراء؛ منشأ المرابطين

ومستهل أرض بلاد البيضان. حلم وهو طفل بالسفر إلى "شنقيط" و"تومبكتو". أغرته حكايات الرحالة عن الفيلة ووحوش الصحراء وخوارق السحرة هناك. مراكش كانت أبعد نقطة تبلغها قدماه وقد ربطته فاس فانكفأ عليها إلى أن امتدت يد الخليفة إلى ماله وولده. لم يختبر إفريقيا الصحراء كما تمنى ولا ظفر بالاستقرار كما ابتغى.

مضى من شارع إلى شارع، ومن درب إلى درب، لم تكن له وجهة محددة، يعيش عالمين في اللحظة نفسها، يخطو في مسارب الذاكرة ويعيش تفاصيل أزقة مراكش. استهوته اللعبة فدخل عدة بيوت كان الطاعون قد أفنى أهلها. وجد متعة خاصة في تأمل الغرف ذات الأبواب المفتوحة والأشياء التي استمرت على حالها؛ على ما تركها أصحابها قبل أن يموتوا. استنشق الزمن المحبوس وتملى اللحظة التي تيبست لتصف ببراعة فراقاً مريراً. بعض البيوت ظلت مرتبة؛ البطانيات مركونة في زوايا خاصة، الطاولات الثلاثية القوائم مسندة على الحيطان بشراشفها، والأواني مصفوفة، وحده الغبار من يؤكد أن الحياة توقفت هناك فعلاً.

أدرك أن الطاعون لم يدفع سيدات هذه البيوت عن عروشهن بيسر. قاومن بشراسة وحافظن على انتظام حياة الأسرة، التي كلفن بتدبير يومياتها، حتى انقضى الأجل وتجلى المحتوم. بيوت أخرى عمتها الفوضى. لا بدّ أن الموت فيها كان صاخباً. موت الصغار أولاً يقهر؛ يشعل حروباً؛ أوانٍ مكسورة، خابيات مثقوبة، حصائر وبطانيات ممزقة ومرمية. أشبه بثورات صغيرة تعبر عن الغضب ضد عدو كاسر، لا يُنازل.

في البيت الأخير كان الأمر مختلفاً. اشتم على العتبة رائحة موت طري. كانت دفة الباب الخارجي منزوعة، كأن موتاً عاصفاً اقتلعها في خروجه الاحتفالي محفوفاً بملايين الشياطين. فكر أن يعود، لكنه انحشر عبر عتمة ممر، مدفوعاً بفضول جارف، إلى فناء البيت الواسع. لن ينسى مشهداً سيستمر محفوراً في ذاكرته لسنين. عشرة أفراد مذبوحين وقد صفوا جنباً إلى جنب، من صغيرهم الذي لم يتم السنة إلى غاية الأم. "الأب هو الجاني"، أو لعله "المخلص"، استدرك. كان الرجل مشنوقاً يتدلى على جذع شجرة مائلة، تشبه حال بلاد تقبل على الانزلاق إلى حتفها.

انحنى ثم تقيأ. لما عاد إلى الانتصاب كان جبل كيليز قد اختفى تماماً خلف عاصفة من الرمال. لحظتها بالضبط أيقن أن هذا المشهد يشكل فاصلاً في حياته، فلا عودة إلى فاس، لا عودة إلى الأبناء؛ لا عودة إلى الماضي. فكر وهو يبصق مرارة القيء مهرولاً إلى الخارج.

عاد جائعاً إلى الفندق فأطعمته شهد، مكدوداً وبائساً فواسته.

– إنس الأرض ومن يدب عليها يا حسن، عش يوماً بيوم، فلا أحد منا يضمن بقاءه ولو لحين.

يبتلع اللقمة التي تدسها في فمه كما تفعل أمّ مع ابن مدلل. يمحّص في تفاصيلها فيكتشف أن جمالها ليس عربياً بالكامل ولا بربرياً تماماً ولا غربياً صرفاً. في عينيها خضرة تنتهي بلون عسلي صاف. بياضها حليبي شفاف، أما شعرها فأسود قاطع يشعل الرغبة ويذكي نار الشبق في صدور الرجال. أغوته فبدت الشهوة في عينين ولهتين.

– كُلْ يا حسن، كل، ثم يكون لك ما تريد...

يربت على كتفها:

- يرضى الله عليك، ويشربك من ماء زمزم.

تبتسم وقد أثارتها لغة الفقيه، تسأل:

- هل درست في جامع القرويين؟

- أي نعم، وفيه ختمت حفظ القرآن وضبطتُ قواعد التجويد وقرأت الصحيحين...

- هنا جامع مختلف، مكان يجمع كل الأجناس، فيه يتكلم البؤساء بلا تكلف، يشربون حتى الثمالة فتأتي كلماتهم صادقة، بلا تصنع.

- قبليني، قبليني...

تنحني، يتدفق صدرها الناهض في زمن السقوط، يتدلى شعرها وتغمره رائحة الجسد الطري. تغدق عليه، تجود كمزن... ثم تبتعد قليلاً، تمد يدها لتطعمه، فيفتح فمه مستسلماً كطفل وديع...

- من أي وطن أنت يا شهد؟

زمّت شفتيها:

- لا وطن...

ضحكت بأسى. تابعت:

- قليل من هنا، وقليل من هناك.

- أوضحي يا عائشة.

كان أبي قرصاناً، أما أمي فكانت غنيمته التي أصابها بعد مطاردة ناجحة لسفينة إسبانية لم يحالفها الحظ بالفرار. عرفته حازماً، قاسياً، قوياً، مفتول العضلات... لكن القوة والحزم لم يؤمنا له النجاة. مات في مواجهة خاسرة مع سفينة ابريطانية جيدة التجهيز والتسليح.

اتكأت شهد على الجدار، فتحت قنينة الخمر، ملأت الكأس الأولى له، والثانية لها. ... تابعت:

- فرحت أمي كثيراً بموت أبي. لم يكن يوماً زوجاً. إنه المغتصب، الجلاد، والرجل الذي يضرب إذا غضب، يضرب إذا سكر، ويلعن الدنيا إذا دانت له بقطافها. فرحت بضعة أيام ثم ابتأست مع الفقر والجوع. خرجت ذات يوم لتؤمن لي ولها لقمة فتأخرت. لمّا نزلت الشمس أدركت أنها خلفتني وراءها ورحلت إلى بلادها. الآن أفهم أنني كنت أذكّرها بأبي. وما كان لها أن تحتمل وجودي إلى جانبها.

بكت بين يديه بمرارة واشتكت قسوة الحياة التي حرمتها الأب والأم والبيت؛ من حقها أن تنعم بأسرة، باللعب مع أبناء الأعمام والخالات. لما هدأت أمكنه أن يمخر عبابها، وأمكنها أن تنعم بذكورته.

نام للمرة الأولى حتى الفجر. استفاق صباحاً فأقسم لها إنها أشرف من زوجته وأطهر من ابنته، لكنه الزمن الأغبر، هو من يضع الآنية الرفيعة في متناول الرعاع ليشرب منها الأوباش والأبالسة.

١٩

كان مزهواً بقيادة الجيش، منتشياً بالمكانة التي خصه بها البلاط. الزي العسكري الأنيق، البشرة البيضاء، والحصان الأدهم، تفاصيل من بين أخرى جعلت منه لوحةً حية وباذخة. خلفه كانت الريح، التي تتدفق على الشعاب اليابسة، وتدفع السحب في الآفاق، تنفح المشهد بطابع الهشاشة. المتابعون عن بعد يعرفون أن هذا المجد الطارئ زائف، وشبيه بوهم. لن يكون مصير المخصي بأفضل من محمد بن مسعود.

سخر سعد السعدي كثيراً من مصرع بن مسعود، عده أبله لأنه خضع لعضوه الذي ساقه إلى الموت. "الذي يجعل من فروج النساء مأوى له لا بد له أن ينتهي في الجحور"، قال للذي جاءه بالنبأ، مثلما لم يتردد في تقديم التهاني للخليفة ليلة مصابه: "هكذا تكون قد تحررت من سطوة بنات اللئام يا سيدي". أضاف بثقة: "وسيكون لك أن تحكم بدل فاس أفريقيا برمتها".

من على صهوة الحصان تأمل سعد صفوف الجند الطويلة، بقبعاتهم الحمراء الزاهية، والتي بدت كخطوط طولية في حقل طماطم جيد التصفيف. ما كان يرغب بمحصول أوفر مما جنى؛

السلطة والمال والقدرة على كنس أي رجل يقف في طريقه إلى وادي الجواهر أو إلى مارستان المجانين، أو إلى ربض الطاعون حتى. كان عضوه أول عقبة واجهته لبلوغ أحلامه. قطعه، ثم انطلق في اقتلاع خصومه واحداً تلو آخر. قتل رجالاً كثراً ملأ بأموالهم خزينة القصر، وجلب بدمائهم رضا الخليفة، وعبر جماجمهم صنع طريقاً سالكة إلى منصب الباشا وقائد الجيش.

الآن وقد بلغت الأصداء الأولى لتحرك جيش مراكش إلى فاس، رغبة منه في تأديب الابن الذي شق عصا الطاعة على الأب وانتهك عقد الولاء الذي يربطه بالسلطان، يفكر في معركة طاحنة يزحف بعدها إلى مراكش ليبسط سطوته على كامل بلاد المغرب. صحيح أنه حقق انتصاراتٍ حاسمة ضد القبائل المتمردة، فقزم من بأس مصامدة الجبل، وكسر شوكة قبيلة "شراكة" واستمال قبيلة الحياينة بعد غضبتها على مقتل الصراف، لكن انتصاراته التي يشهد بها الصديق والعدو، بدل أن تروي شغفه، زادته نهماً لالتهام الأرض كاملة ومن يدب عليها.

على جنبات مقدمة الجيش كان حاملو الأعلام الكبيرة ينتصبون كتماثيل تظللها الرايات الخفاقة. تحيط بهم فرق النفارين وقارعي الطبول الذين استقدمهم المخزن من القبائل المتحالفة. يقف الخيالة في الصفوف الأولى للجيش في حوالي ثلاثة آلاف فارس، يليهم فرق المشاة متبوعين بفرق المتطوعة وإن ارتدوا أحذية العسكر وكسوته.

"جيش من المنهوكين والمرضى والجياع"، قال ميمون الراضي الذي وجد نفسه مجبراً مرة أخرى على دخول حرب ليس معنياً بها.

لا يعرف ماذا يفعل لمّا يستعر أوار المعركة، ولا اتجاه من يوجه فوهة البندقية أو كيف يتعامل مع أولئك البؤساء الذين سيسددون الرصاص عليه. "تلك المدن الخربة أفضل من العيش وسط أناس يأكلون بعضهم البعض"، فكّر. غير أن مسؤوليته اتجاه زوجته وأولاده جعلته يستمر منحشراً في زمرة المشاة. خلال الطريق التي سيقطعونها على منبسط هضبة "السايس" سيلاحظ أن الكثير من الجنود تخلفوا عن المسير ليموتوا فرادى، حيث يأكلهم الطاعون في عزلة عن العالم. لم يلتفت قادة الجيش إلى المرضى ولم يعملوا على فصل أولئك الذين ظهرت عليهم أمارات الإصابة عن بقية الجند، تركوا الرجال في مواجهة مفتوحة ضد الجوع والقهر والطاعون، وجيش السلطان الذي لم يظهر بعد.

سعد السعدي، كما ألفوا، لا يحب الخطابات الطويلة، عملي، مجنون بالحرب، وعاشق للدم، وعلى استعداد دائم للقتل. أعدم في نفس الصباح ثلاثة من صلحاء المدينة جاهروا بمشروعية "حْرْكَة" السلطان، وعلق رؤوسهم في باب أبي الجنود. استقبلت العامة والخاصة الرسالة فلزم الجميع بيوتهم والصمت.

نظر إلى صفوف الجيش، منفوخ الصدر، مرفوع الأنف، فسرت بينهم رعشة أقرب إلى التهيب. نفخ النفارون في أبواق من النحاس ثم قرع الطبالون الطبول ثلاثاً. رفع يده فعم الصمت. أمكن للجند أن يسمعوا حفيف الريح، ويتدبروا عظمة رجل لقب بالشيطان الأحمر. تحدث إليهم زاعقاً:

– لا مكان للجبناء بيننا يا أهل فاس، من يُقبل أظهرنا له كرمنا، ومن يدبر أريناه بأسنا...

هتفوا بحياة الخليفة، ضجوا في حماس، قبل أن يلزمهم النفير بالصمت. تابع:

- بالأمس بلغنا النبأ اليقين عن حركة السلطان، لا نصره الله ولا أيده، وإنا له لموصِدون، فمن والانا فتحنا له، فتحاً، خزائن مراكش التي جاءونا منها غزاةً، ومن والى السلطان، الطامع في ملك ولده، جنى غضب الله عليه وغضبنا. فكونوا لنا عوناً، وقاتلوا عدو الله وعدوكم، يكن الله معكم ونكن لكم مدداً.

عاد الجند للهتاف، هذه المرة بحياة قائد الجيش. في قصر الخلافة كان الخليفة قد أخذ قراره الأخير في شأن الموركسي الشاب؛ إذا انهزم نحاه عن القيادة، وإذا انتصر اغتاله في أرض المعركة. يعرف أن القائد الذي يحوز نصراً على الأب لا يمكنه أن يقبل بابنه سلطاناً عليه.

تابع قائد الجيش:

- فاضربوهم أينما ثقفتموهم، ولا تأخذكم بهم رحمة ولا شفقة، فأهل مراكش صعاليك إذا تمكنوا منكم استباحوا أموالكم وزوجاتكم واسترقوا أولادكم. امضوا، لنا في مضارب "السايس" مستقر إلى حين، فاصبروا وصابروا ما شاء الله، يكن النصر لكم ولنا. ولا قدر غير ما قدر الله ولا مجد لغير الماجدين.

تحرك القائد فتبعه الجيش. ساروا عبر التلال نحو هضبة "السايس"، مروا عبر مدائن تحولت بفعل حروب "سعيد" إلى خرائب. تهدمت أسوار المدن وسقطت أسقف بيوتها وفاحت منها رائحة الخراب. بدت كجثث متعفنة أهملت في الخلاء. المشاهد التي أثارت الأسى في صدور من عاش مجد هذه الأرض ملأت

قلب القائد بالارتياح. الأرض اليباب تدفع قريحة الاقتتال داخله إلى مداها. القرى التي استمرت حية، تقاوم الجفاف والوباء، هجرها أهلها لمّا بلغهم خبر مرور الجيش عبر أراضيهم.

يختار سعد أبداً البسائط ساحات لمعاركه حتى يتمتع بمشهد الالتحام. آمن أن الجمع بين الحكمة والجنون هو ما يحسم الحروب لصالح طرف دون آخر؛ الحكمة عند التخطيط والجنون أوان الاقتتال.

نصبوا الخيام مساءً في حلقات دائرية تبتدئ في المحيط بفرق القبائل وتنتهي في المراكز بخيمة القادة. حولوا، فور وصولهم، مجرى مياه عين "السخينات" الشحيح إلى المخيم حتى يتوفر الماء للجند والخيل. في خيمة القيادة كان النقاش مستعراً. اعترض محمد رشدي؛ قائد فرقة الخيالة والهجن على ترك فاس دون حماية. سأل سعد مشككاً في نواياه:

– وما يضمن لك اتجاه جيش السلطان من جهة الشرق إلى المدينة؟

ردّ سعد ساخراً:

– أولم تقرأ في القرآن: "لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسئكم".

احتج قائد الخيالة:

– هذه حرب يا سعد، لا مكان فيها للعبث.

مد سعد يده، أمسكه من ردن بزته ثم سحبه إليه:

– لا تكن بليداً يا رشدي؛ النصر على السلطان يعني موتنا. لن يبقي الخليفة أحداً منا. سنترك السلطان لينفرد بابنه، ثم نتولي أمره ليكون كل شيء لنا، لنا وحدنا. أتفهم؟

٢٠

سقط المطر بغتةً، دون مقدمات ولا دعوات استسقاء. أحدٌ لم ينتبه إلى الوشاح الرمادي الشفاف الذي لفّ السماء على عجل ثم رشح بمطر هادئ. بوغتت ساكنة جبال الأطلس بذلك الرذاذ الذي يغازل أشجار السرو العملاقة، وبوداعة الرياح الرقيقة التي هدهدت أغصاناً اشتاقت للماء، وتلك الزخات المتباعدة التي تسقي بوداعة الجبال والأنفس.

تحت الأسقف الواطئة لبيوت الطين غنى الأطفال ببهجة لم يعرفوها منذ وقت بعيد، وكان لهم أن يحلموا بالشلالات التي تتدفق بالماء وتزهو بأشكال السمك. العجزة استحضروا في غبش ذاكرة الشيخوخة، وبكثير من الحنين، الزمن الجميل، الغابر، لمّا كان في حوزة كل رجل بيتان؛ بيتٌ في السهل، يلجه في الصحو، وآخر في الجبل، يقيم فيه أوان الشتاء. أما الأزواج اليافعون، المغتبطون بالمطر، فألحوا على زوجاتهم للإسراع في إعداد المجامر وأباريق الشاي...

لا بد من صينية الشاي ليتصالح الحاضر بالماضي، مثلما لا بد

للأباريق أن تعلو فوق الكؤوس حتى يعانق خرير شايها المتدفق خرير السواقي التي استعادت قدرتها على الجريان.

اغتسلت الأشجار وفاحت رائحة التراب المبلل وسالت السواقي وحلقت طيور في السماء... "شيء ما تغير"، قال حامد وهو يتطلع من الشرفة إلى الأفق الغائم. كأن العالم قد تبدل، صار إلى آخر، غير الذي كان. صدى المطر جاء كدغدغة لأحاسيس كادت تختفي، أما اللون الرمادي فبدل أن يغم تفتق بالسكينة.

عانقته طامو اليفرني من خلف، وضعت وجهها لصق وجهه، همست:

– تغير منذ وطأت قدمك الأطلس.

شعر بنهديها الصلبين يضغطان على صدره وبأنفاسها الدافئة تختلط بأنفاسه. اجتاحته الرغبة. هو نفسه، وفي بضعة أيام، صار مختلفاً عن الذي كان. حرك رأسه مؤكداً:

– لقد تغير فعلاً يا طامو.

لم يمتلك الكلمات الكافية ليعبر عن فيض الأفكار التي عجّ به ذهنه. شعور ملتبس، عن جنون يسكن العالم، بانفلات المداد الذي يصوغ الأنساق ويشكل الأحداث...

– هل يسقط نفس المطر على بيوت فاس؟

ابتسمت:

– في فاس تقرع طبول الحرب. السلطان قادم من عاصمة ملكه يعتزم الإطاحة بابنه العاق.

انفلت من بين يديها. بدا غير مصدق:

– تمزحين؟

– كلا. الحرب على وشك.

مدت يدها، أمسكت بيده الباردة كقطعة ثلج:

– تشعر بالبرد؟

– نعم...

– سأحوك لك جلباباً من الصوف اللين، وجواربَ ناعمة... المرأة الأطلسية تكرم زوجها...

اتسعت عيناه:

– وهل وافقا على زواجنا؟

– نعم، لقد قبلا بك صهراً، ورضيت بك زوجاً.

عانقها بحرارة، وود لو يبكي. الدموع كما المطر، تغسل، وتجعل الإنسان أخف؛ تدفعه من حالٍ إلى حال. عانقته بدورها وقد أسرّها أن تقاسم فراشها ولقمتها فتى متعلماً ينحدر من حاضرة التخنث والقسوة والعلم.

مع هدير فوهات البنادق، ورائحة البارود التي اختلطت برائحة الشجر والتراب المرتوي، ترسب في دواخله إحساس بالأمان. لصدى الرصاص والبارود المتفجر هنا، في أدغال جبال الأطلس المنيعة، بشجرها، وحجرها، وناسها، وقع شبيه بنباح الكلاب المدربة، تحمي الكلاب الدور من اللصوص كما تحمي البنادق القبائل من سطوة كلاب المخزن.

انتهى عالمه القديم، توارى سريعاً، ونشأ على أنقاضه عالم جديد، بلا أب، ولا أم، ولا زهرة... ولا ضجيج باعة أو طقطقة صناع آنية

الفضة والنحاس في دكاكين المدينة العتيقة. فاس، اللحظة، بعيدة عن القلب كما عن العين، أسوارها العالية ومدارسها العريقة وأسواقها العتيقة تطوف في ذهنه كخيالات عن كائن أسطوري لم يعد له وجود. طامو بزي العروس تجلس إلى جانبه والذبيحة التي سيقت إلى وسط ساحة العرس تتركّل وقد ساح دمها الدافئ على الأرض وتشعب في أخاديد طويلة. تابع بانبهار تلك الأطراف التي تضرب في كل الاتجاهات كأنما تدفع الموت الزاحف في ثبات. استدار جسد القربان صانعاً دائرة من الدم، أما الرأس فظل راسياً في مكانه، يمتد محيط الدائرة فيظهر العنق المفتوح كشرخ في جذع شجرة.

تقدم شيخ القبيلة بخطوات موزونة، يلبس جلباباً أبيض، على كتفيه برنس فاخر، وعلى رأسه "رزة" صفراء يتدلى طرفُها الخلفي إلى مستوى الرقبة. جاء الصهر مصحوباً بزوجته التي قدمت مثقلة، بحسب عادات القبيلة، بأساور من ذهب وقلادات مزينة بحجارة نفيسة.

"انحنيتُ، قبّلتُ يد والدتها؛ يد باردة منقوعة في الصقيع، أما الوجه فصارم يحمل من القسوة ما يحمل وجه محاربي الصحراء. الشيخ، سيراً على عادته، بدا ليّناً. وجهه الأبيض الصافي يعرض سجية بلا حقد. ربت على كتفي، دعا لنا بالتوفيق. العجل المذبوح أخذ يستكين وقد تشرب الموت، وحدها ارتعاشات خفيفة استمرت تعتري جسده الذي أنهك. رفعتُ عيني إلى أبعد، أشجار الأرز العملاقة تنتصب كجدران معبدِ قديم. السماء كانت طفولية تلهو ببضعة سحابات أهملتها الرياح.

أمسكتني طامو من يدي، أجلستني برفق فانتبهتُ إلى الصحن. مددتُ يدي، حملتُ ثمرة، أطعمتها فأطعمتني كما تقتضي عادة البدو والحضر عندنا. في عيون الشباب الذين كانوا يتابعوننا عن كثب رأيت الحسرة. كنتُ على علم أن قبائل الأطلس من أزرو إلى خنيفرة لا تفرض قيوداً على بناتها، وأن الشباب لا يرفعون اليد عن الواحدة، ولا ينقطعون عن التردد عليها، إلا إذا أعلنت زوجة.

أساءني أن يقاسمني آخرون من هذه القبيلة أسرار جسد طامو. لم تكن لتتمنع عنهم وهي التي بادرت إلى مضاجعتي دون أن تعرف عني شيئاً.

قلق إلى حد ما، مرتاح كثيراً. هذا الزواج سيمنحني أرضاً بديلة تثبت عليها قدماي وتدفع عني التشرد الذي أراده لنا الطامعون في ثروة أبي.

ثم بدت الحياة، في لحظة زيف، متاحة كعاهرات أرباض الحمالين. تماديت قليلاً، تجرأت متغافلاً شباب القبيلة الرافضين لزواج هجين. انتصبت لتقبيلها في هيئة ديك قرر أن يحوز دجاجةً سائبةً.

أيّ شيطان تلبسني لأفعل؟

جلت ببصري، لا مست بطرفي الأشجار السامقة والخيام المرفوعة وبركة الدم، ثم أغمضت عيني. اقتربتُ مأخوذاً بتتويجي زوجاً على أرض ليست لي. غمرتني رائحة جسدها، أنفاسها، وشذا أشجار الأرز... تذكرت المولى إدريس؛ العربي الذي جاء فاراً من المشرق، فكانت له كنزة الأوْرَبِية والسلطنة في بلاد الأمازيغ.

هل يكون لي شيء من مجده التليد؟

فكرت، وقبل أن أضع شفتي على جبهتها، جاء الجواب من فوهات البنادق التي صدحت فأحالت عرسي مأتماً.

فتحت عيني. كانت طامو تنظر مذهلة لفوهات البنادق المصوبة نحو والدها ونحوي. أحكم فتى يافع قبضته على شعري ثم جرني إلى الأرض فاختلط في رأسي كل شيء؛ رؤوس الأشجار المتغطرسة بسحابات نفقت لتوها في الأفق برائحة دم القربان. غابت عني كل الوجوه، وابتعدت الأصوات الزاعقة، أتذكر فقط ذلك الظل الذي ارتسم على الأرض متعملقاً يحمل بندقيته المصوبة نحوي.

٢١

"أنا الآن عاشق، متيم. أنا الذي لم أعرف طعم العشق يوماً ولم أخض مسالك الحب من قبل ولا جربت جسداً غير حلالي. أنا الذي أغرقتني حسابات الدكاكين والقوافل والمحاصيل... أنا الذي جئت بحثاً عن الانتقام فأغرقني الدجى وما خبرتُ فنون السباحة ولا مثالب البحر...

عذراً زوجتي، عذراً ولديّ... أنا لم أعد لي...

صرتُ أراك، يا شهد، في سحابة تمضي حرة طليقة... أراك على ما تبقى من سعف نخيل يقاوم، مثلي تماماً، الجفاف، وقسوة الحياة، أراك في نفسي التي هجعت بين كفيك كما تهجع الشمس الغاربة بين ضلعَي جبلين.

مراكش اليوم، المتخبطة كطائر جريح، أجمل مما كانت عليه في أي وقت مضى... قادرة على طرد الوباء، والغزاة، والطغاة... والعودة لمصالحة مجدها التليد...

لعلها أوهام العشق... حمّى الوله...

شهد، شهد، يا شهد... لقد أحببتك، فحذار أن تغدري بي...".

في اللحظة التي انطفأت فيها الشمس في المحيط، ومسح الليل بقايا الشفق التي تطلي، كخراء رضيع، مؤخرة البحر، استحضرت عائشة، أو شهد كما يحلو للمقري تسميتها، ذلك المساء البعيد، يوم عاد الليل ثقيلاً، ولم تعد الأم. تذكرت شرفة البيت المطلة على الزقاق المنتهي بدار العاهرات، والنجوم الأولى التي بدت كثقوب تتسلل عبرها الشياطينُ. ليلتها نزل البرد قاسياً، مع الخوف والجوع، ففاضت هواجسها على صدرها. أُشْعِلَتِ الشموعُ والفوانيسُ داخل البيوت، فأمكنها أن ترى أطفالاً يتسلقون أعناق آبائهم وأمهات يهدهدن رضّعاً استعصى عليهم النوم. انطفأت الشموع والفوانيس تباعاً وزحف الظلام بيقين، كما يزحف الموت، من بيت إلى بيت. نام الجميع – كانوا سعداء رغم القهر والجوع أو هكذا خمنت – وظلت هي وحدها ترقب بيت العاهرات الذي استمر مفتوح الباب، كأمل وحيد للنجاة.

اندحرت خيوط الشمس، التي غادرت، كما تولّي قوارب صيد رجعت من البحر بلا صيد. في السماء تكورت هالة أقرب إلى كتلة رماد كما يتكور جنين في بطن جاف لامرأة حامل... واستمر هدير البحر يمخر جيوب الذاكرة. لم تتزحزح من النافذة ولا راودتها رغبة نوم. أقسمت ألا تغمض إلا وهي على ظهر السفينة التي تحملها إلى الطرف الآخر من العالم. كان والدها مسلماً وكانت أمها مسيحية، ولا فرقت يوماً بين عيسى ومحمد، وما صلت ساعة، تكتفي بالدعاء كلما اشتد عليها الضيق، وتحلم أبداً. تحلم في زمن الشدة أكثر مما تفعل في اليسر. أحلامها ترتسم أبداً كظلال أبطالها بلا ملامح، ولا

هوية، على أرضٍ تميد.

ظل وجهها إلى البحر، خلفها يرتخي حسن المقري مسلوب اللب والإرادة. لم يحسب يوماً أن الحياة ستنقلب به كل هذا المنقلب، ولا تخيل أنها ستجنح به إلى حيث مرارة الهوان وحلاوة العشق.

"آسفي، يا مدينة التخوم والأقاصي، يا أرض الحب والكراهية، مكمن القوة والضعف، أنت اليوم باردة كقطعة جليد، قاسية كقلب جلاد... لم يفلح هذا البحر، الموسوم بالظلمات والمجهول، في منحك شيئاً من الدفء، ولا صدت عنك أسوارك الشاهقة، المتعالية، الصعاليك والغزاة".

اقترب المقري من النافذة، وضع كتفه لصق كتفها، ناداها بصوت تعتريه غنة انكسار:

– شهد.

التفتت إليه، بدت له أجمل من أي وقت مضى، كأنّ رحيلَها سيخلصها من دنس الدعارة الذي التصق بها قهراً، أو لعله الإنسان، تغدو الأشياء في عينه أغلى لما يتهدّدها الفقد. تذكر أن زهرة صارت أغلى لما أصيبت بالجدري، وأن أملاكه صارت أثمن لمّا ترّكها المخزن، وها هي شهد الغالية تصير إلى كل، إلى ظاهر يلبس الأشياء جميعاً. ابتسمت في وجهه بأسى. رأت فيه نفسها؛ الطفلة التي ضيعها هجر أمها لها. مدت يدها، داعبت وجهه:

– سأرحل يا حسن، إما تمضي معي وتنسى هذه الأرض ومن عليها، أو تبقى هنا وتنساني... ليس لك أن تجمع بين الاثنين.

هدير البحر يملأ الفضاء المترامي، يلاعب الأحزان، يدغدغها،

ثم يتراجع لحظات ويعود بنفس إيقاعه الرتيب، يستحيل في النفس إلى سيمفونية رتيبة تصف العالم الرتيب.

– ابقي، لا بد أن أسترجع ما ضاع، ولك عندي أن أبني لك قصراً أجمل من قصر السلطان...

ضحكت بأسى:

– ما ضاع هنا لا يعود أبداً.

– يعود، يعود بقدرة القادر يا شهد.

– وهل عادت أمي التي انتظرتُها عمراً؟

لم يفهم ما تقصد عائشة بالضبط، واكتفى بتأمل ووجهها وهي تيمم شطر البحر مجدداً. أبحرت في ماضيها المهيض حيث طفا وجه أم حالم. تتذكر أن أمها قاومت هيمنة والدها لتجعلها قطعة منها. لقنتها اللغة الإسبانية ونقشت في ذهنها لازمتها الأثيرة: "أنت لست من هذه الأرض". قالت لها عدّة مرات: "أنت إسبانية مثلي يا ميرا، انظري إلى لون عينيك وتأملي هذا البياض الإيبيري الخالص، ولا تنسي أن وجودنا معاً موقت على هذه الأرض، متى سنحت الفرصة ركبنا البحر نحو أرض أجدادك؛ إلى قادس، مدينة البحر والأحلام. عائشة صورة مشوهة عنك، تقبليها في حضور القرصان، ثم تنكري لها متى غاب، وادفنيها على أرض مراكش فور معانقة الماء".

أتقنت اللغة الإسبانية أكثر من إتقانها لغة والدها، وآمنت أن مستقبلاً جميلاً ينتظرها خلف بحر الظلمات. ما كان للقرصان أن يكتشف وشم "آل رودريكس" الذي رسمته أمها في كتفها، ليبقى شاهداً على أصلها القشتالي. انتظرت والدتها لسنوات ثم سلمتها

القلادة الذهبية حيث كان عنوان بيت عائلتها في قادس منقوشاً بحروف لاتينية بارزة ليكون خارطة طريق لعودتها إذا تعذر عليهما البقاء معاً. تساءلت عائشة أكثر من مرة كيف لهذه الأم أن تهجر ابنتها؟ تشعبت الاحتمالات قبل أن تخلص إلى أن كراهيتها للأب غطت حبها للابنة. قبلت بفرضية الهجر أخيراً لأن أمها أهدتها العقد، وقرأت عليها عنوان أجدادها في قادس، صبيحة يوم الغياب.

كان غياب أمها فجائياً، وقاسياً. فابتكرت عائشة أساليب خاصة لتذوب لوعة الفراق. أبقت أمها حية إلى جانبها من خلال بضعة أشياء؛ ملابس وحلي وخربشات على الجدران. ما استطاعت أن تواصل الحياة بلا أمّ.

تقدر اليوم أن أباها، الذي كرهته كما كرهته والدتها، كان جريحاً بدوره، وأن مرارة طرده من الأندلس رفقة الآلاف من جيله ملأ قلبه حقداً على إسبانيا والإسبانيين، فعاش يتصيد السفن القشتالية العابرة لبحر الظلمات. توقن أنه مات دون أن يروي عطش الانتقام ممن حوّلوا حياته إلى جحيم.

رسمت على جدار غرفة نومها وجه أمها جاعلةً فراش مرقدها تحته مباشرة. تنام وهي تنظر إلى المحيّا الباش، أحياناً كثيرة تصغي لحكاياتها القشتالية عن الملكين الأسطوريين، فرديناندو وإصابيلا. تنام وتستفيق على وجه أمها، تلقي التحية وتتمنى لها يوماً سعيداً، ولا تتوانى في رواية تفاصيل يومها أمامها لمّا تعود. تلامس الأحرف اللاتينية التي نقشت تحت الوجه بأطراف أصابعها: "كونديرا، أحبك إلى الأبد"، ثم تعيش اختلاجها في وحدتها وهي تداعب

مفاتيح بيت أجدادها في قادس.

في غرفة المعيشة علقت والدتها مفاتيح بيت عائلتها في قادس عشية موت زوجها. قالت لابنتها إن المفاتيح تشعرها بالدفء وتبقي أمل العودة إلى الوطن قائماً. اختفت الأم واستمر الأمل معلقاً على الجدار ينتظر يوماً يعانق فيه المفتاح القفل.

أشعرَ هدير البحر، الذي عاد أحدّ، حسن المقري بالغرق. ضاق صدره وتثاقلت أنفاسه فأجهش كطفل. شقّ عليه أن يختار. عانقته بدورها وبكت:

– ليس لك من خيار آخر يا حسن، إما أن تنساني أو تنسى هذه الأرض.

٢٢

نعم، نفس المطر هطل على مدينة فاس كذلك، بذات الرقة والوداعة التي عرفتها جبال الأطلس، واستقبلت الأرض العطشى للماء، المروية بالدم، الرذاذ بوله العشاق. تراجعت السماء أخيراً عن عبوسها، وتخلت الأسوار المتعالية عن شدّتها، فانبثق مدينة أخرى بلمسة ساحر. تحركت الرياح بلطف، وسكن الغبار الذي جرى لشهور طويلة في الأزقة والشوارع، وأمكن للناس أن يستحضروا أماسيهم الجميلة، ويحلموا بمُضِيّ زمن الوباء الذي طال أكثر مما يحتملون. تخففت الأنفس، مع الهواء البارد الذي لامس الوجوه، من بعض أحزانها، فخرجت النساء إلى الشوارع، على غير عادتهن، دون أن يُحكمن لفّ أثوابهن على أجساد أنهكها الشقاء، وبدت الفتيات أكثر تحرراً، أما الشباب، فكان لهم، للمرة الأولى، أن يمتعوا أبصارهم بما لم يألفوا.

الخليفة المكلوم، ومن إحدى شرف قصره المشرفة على فاس بأكملها، نظر إلى المدينة على خلاف ما كان يفعل. رآها كرضيع يرتوي من صدر أمّ حنّ بعد شحّ. فكر أن يتخلى عن جشعه، بدت الحياة في لحظة سهو عابرة، لا تستحق كل ما بذل لأجلها. شعر

بالغيظ، والكثير من الندم. الوجوه التي صادر حقها في العيش تحوم حوله كغربان طلباً للقصاص. ما عاد يقوى على النوم، والأيام "الأيام صارت سوط عذاب"، ردّد بأسى.

في الأزقة والحارات تشجع بعض التجار ففتحوا محلات خاوية، شرعوا في الكنس وترتيب الرفوف. تجرأ بعضهم أكثر فجلس على الكراسي، في عتبات المحلات كما كان يفعل أيام الرخاء، أما الصناع والحرفيون فحملوا، في حي الدقاقين، أدواتهم، وأخذوا في تشكيل أوانٍ جديدة. على نحو ما أراد الناس أن يدفعوا حالة البؤس، متواطئين، دون اتفاق، على العودة إلى الحياة المألوفة. عائشة الخيزران حملت بدورها قفة الدوم وقصدت مكبات تعرف أنها فارغة تماماً، مستمتعة بالرذاذ الذي بللها كليّةً، وشوهد بعض الفلاحين، خارج الأسوار، يقصدون حقولهم، في غير أوان الحرث، وعلى أكتافهم معاولهم.

"كم أنت رائع أيها الشعب العظيم"، كتب الإخباري المجهول يسجل بفخر ما رأى. أضاف قبل أن يخرج بدوره إلى الأزقة ليقاسم البسطاء شيئاً من الأمل: "وقادر أبداً على تحدي حكامك القاهرين، وقسوة الأرض التي لم ترحمك".

في ربض الطاعون تبادل النزلاء التحايا بدورهم، واستطاعوا أن يتسموا في وجوه بعضهم البعض، وأن ينظروا إلى السماء بعيون مفتوحة لا تخشى وهج الشمس الحارق، حتى أولئك الرازحون، في مربع الهلاك، الذين نبتت دمامل الطاعون في حناجرهم، ابتسموا. كان من الممتع لهم أن يموتوا تحت وقع المطر، على الموت في جحيم القيظ.

وسط ساحة الربض الأولى، حيث لم يعد لعليّ المراكشي وجود، تبللت الأغطية والبراقع التي دثر بها الحاج عمرو الزرهوني الإدريسي منحوتته الكبرى، فالتصقت بالصخر مثقلةً بما تراكم عليها من غبار. بدت مريبة بتقوساتها، مثيرةً للفضول بعلوها، لكن أحداً لم يجرؤ على الاقتراب. الحارس الجديد، الذي عيّنه المخزن خلفاً لسابقه الموصوم بالخيانة والعمالة، امتنع بدوره عن لمسها. لا تزال لعنة الحاج عمرو راسخة في الأذهان.

لم ينم عمرو هذا الصباح على غير مألوف عادته. لا يريد أن يفوّت فرصة التمتع بحالة استثنائية في زمن المخزن والطاعون. خرج إلى ساحة الربض. مشى بيسر لا يتناسب مع حاله، ولا مع عقوده السبعة، اعتلى المنحوتَةَ في رشاقة قطّ. تابعه النزلاءُ من على عتبات أكواخهم، وعبر النوافذ، بشغف، وتوقف الخبازون الذين كانوا في طريقهم إلى فرن الربض، ليشاهدوه بانبهار تام، وهو يضع قدميه على رأس الصخرة، محافظاً، ببراعة صقر، على توازنه، وهو يرفعٍ قبضة يده التي اتخذت هيئة الإمساك بشاقور. دفع قدمه اليمنى قليلاً إلى الخلف، مبقياً على الأخرى ثابتةً كوتد، ثم تسمّر في وضع جلاد يقبل على جَني عنقٍ.

"رجل ممسوس"، تبادل الخبازون العبارة في شبه همس، ثم انقلبوا سريعاً إلى وجهتهم مخافة المسّ بالأذى. أحمد وزهرة الواقفان بقرب بعضهما البعض، استطاعا أن يفكا سر الصخرة التي أمضى عمرو في نحتها أكثر من شهر. استحضرت زهرة عضو الخليفة المبتور ثم نظرت إلى السماء. حركت رأسها إيجاباً وتمتمت:

– ثمة طلاق قريب.

ردّد أحمد العبارة ذاتها مأخوذاً بوهج عشق داهمه على ظمأ. خمّن: "زهرة جاءت بالعشق والمطر، واقتصت لنا من الباغي"، دون أن يتزحزح بصره عن الشيخ الذي تسمّر كتمثال من برونز. قال لها:

– سيسقط.

– سيسقط عما قريب. لا بد أن يسقط. أضافت زهرة ترتق المعاني.

ما كان أحمد بلانكو يحسب أن الربض الذي سيق إليه مربوطاً، تحت سماء مخاطية ودانية، سيمنحه، بعطاء أمّ، أجمل ما في الحياة؛ الحب الذي لم يُوفّق في العثور عليه في ضواحي إشبيلية.

حارس الربض الجديد، ذو الخمس والعشرين سنة، اكتفى، هو الآخر، بتتبع الحاج عمرو دون أن يحرك ساكنا. توجس من هذا الرجل مذ وطأت قدمه المحبس. ابتعد عنه بما يكفي وقد أخبره السابقون عن لعنة الحاج عمرو الزرهوني الإدريسي التي مست ثلاثة من صفوة رجال المخزن، وذهبت بذكورة الخليفة بعد أسابيعَ معدوداتٍ، دون أن تستثني الحارس الذي أكرم مثواه. الرهبة هي ما طبع علاقة الحارس بالمحروس.

عكف زياد الديلائي عن الاقتراب من الشيخ، وإذا دعت الضرورة تحدث إليه عن بعد، وبصيغة الجمع لا المفرد. يقول له بتلطف بالغ: "لعلّ حاجةً تعوزكم أو أمراً يقلق راحتكم؟" ينظر إليه عمرو بعينيه المنطفئتين، يهز رأسه دلالة الرضا، ثم يغرق في صمته. أوصى الحارس الخبازين بإكرامه: "تأكدوا من شبعه بما يخلف من طعام ولا تردوا له طلبا". ثم جلب له ضعف الأغطية المخصصة لغيره،

وتحمّل، بطيب خاطر، وقع الإزميل الذي حرمه، على امتداد، ليال طويلة، من النوم.

حاول الديلائي الشاب أن يفرض سطوته على الربض في أيامه الأولى، لكن الجو القاتم، واللامبالاة التي تسود بين كائنات فقدت آدميتها، بدد ريحه. تكرس إحساسه المنفر بالوجود بين موتى فعليين، ثم ترسخ مع الجثث التي يبيضها المبنى المشؤوم، عبر مؤخرته، كل يوم. شيئاً فشيئاً تخلى عن غطرسته كمخزني، وتبادل الحديث مع أحمد وزهرة، وتساهل أكثر مع الخبازين، قبل أن يبادلهم موائدهم، وأحزانهم، ويشاطرهم الرسوخ في العداوة للسلطة والخليفة والسلطان.

شعر أحمد بلانكو، تحت وقع المطر المخاتل، بالرغبة، تدفق الدم في عروقه، وتمنى لو كان بمقدوره أن يضمها إليه، ويتأبد في حضنها. تأمل ملامحها الرقيقة، وذلك اللون العسلي الذي يتخثر في عمق عينيها ليمنحها غموضاً بطابع القداسة. خطر له، بغتةً، أن يعرض عليها الزواج. عرس في مملكة الموتى سيكون بطعم خاص. تابع زهرة وهي تتقدم في ساحة الربض، تبلل ثوبها الرمادي والتصق بجسدها لتتألق الأنثى أكثر، رآها أيقونة تمشي...

– احذر السقوط يا حاج.

لم يردّ على تحذيرها، فتح ذراعيه على وسعيهما كما تفتح دفتا باب عريق، رفع قدمه اليسرى أكثر، وفي ذهول الجميع، صرخ ملأ فاه:

– إلى الجحيم يا خليفة الشيطان.

٢٣

انتبذ ميمون الراضي مكاناً قصياً من مربض الجيش. المطر الذي هطل منذ الصباح، والذي خفف من أوجاع الأرض اليباب، خلف في دواخله إحساساً بائساً. تحوّل الغبار الذي تراكم في صدره لسنين إلى طين. ثقُلَ جسده أكثر، وبات حمله عبئاً مضاعفاً عليه. تمنى لو لم يتزوج أبداً ولم يخلف أولاداً يربطونه إلى حياة سمتها العار. السماء الدامية لآخر المساء، والتي طلت الغيوم بلون قانٍ، كرست الطابع المأتمي لرجل مكتئب يرتكي على جذع شجرة تيبست ولم تكرمها يد الحطابين بالنار.

أيقظه عسكري بعد منتصف الليل:

– قم يا مجنون واقصد الخيام. احم نفسك من المطر ولفح البرد.

فتح عينيه كما يفعل السكارى:

– اذهب يا رجل، فالموت برداً خير من الموت في سبيل طاغية.

– صه، حذار أن يسمعك القادة.

– اذهب إليهم وقل لهم إني عميل مندسّ.

عاد للنوم فأيقظه العسكري من جديد:

– ألم يبلغك النبأ؟

– ما يهمني من أمركم شيئاً على الإطلاق.

– جيش السلطان يحاصر فاس، ولم يبقَ مع الخليفة إلا قلة من الجند.

في خيمة القادة، الأكثر فخامةً واتساعاً، كان سعد السعدي ممدداً على الأريكة واضعاً ساقاً على ساق. تحدث إلى رسول الخليفة، الذي جاء على عجل يطلب عودة الجيش لمنازلة السلطان. بازدراء بالغ أجاب:

– قل لخليفتك أن يترك القصر لمن بناه.

جحظت عينا الرسول وبدا غير مصدق لما يسمع. أضاف سعد:

– ما بك يا أبله؟

– كيف يا سيدي وقد خلت دهور على من بنوا القصر وصاروا بعد موتهم رميماً؟

كركر:

– ليترك القصر للموتى يا أحمق.

ضرب القدح على المنضدة فاندلق ما تبقى فيه من نبيذ. انتصب وقد تغيّر لون وجهه. انمحى الوجه الساخر، وحط بدلاً منه وجه صخري، ممتلئ بالحقد والكره وروح التشفي.

– عد إليه، قل له إن مندوسا بلانكو؛ قائد جيش حضرة فاس، يأمرك أن تقاتل كرجل، والدك الذي جاء ليذلك، بما توفر لك من عسكر. هذا الجيش الذي يرابط الآن، على تخوم قبائل بني مطير، ما عاد يدين لغيري بالولاء. أنا سيده الجديد؛ سيده الوحيد.

انقلب الرسول ليعود أدراجه فاستوقفه:

- ليس له إلا أن يموت بشرف أو يخسر الشرف والملك معاً.

في فاس تابع السكان، بعدما فتق الليل آخر خيوط المساء، نيران خيام جيش السلطان، وهي تتقد على مسافة من أسوار المدينة، كآمال صغيرة تزهر. احتفلوا في صمت، وانتظروا بصبر نافد اقتحام الجند للأسوار. لم يهمهم كثيراً أن يكون السلطان أفضل من ابنه. علمتهم التجارب السابقة أن الحكم عقيم، وأن الحلم بالعدل والقسطاس سريعاً ما يتبددان تحت وطأة الجشع ومتطلبات الحكم في حالتي الحرب والسلم. كانوا معنيين فقط برحيل الخليفة وحسب. في نزع ملكه قصاص لهم من سطوته، وفي انكسار شوكته منفرج يُذهِبُ قسطاً من أحزانهم. القبائل المتحالفة مع الابن أسرعت إلى الإعلان عن فك الرباط. زار شيوخ القبائل السلطانَ في خيمته، وأوضحوا له أن طاعتهم لولده لم تكن غير تعبير عن طاعتهم له هو، لا لغيره. ولأن الابن نقض عهد الأب، فقد بطلت المواثيق التي تربطهم به.

أصيب الخليفة بالهلع لمّا بلغه خبر خيانة قائد الجيش وتخلي شيوخ القبائل عن حلف الولاء. وكغريق طلب المشورة، بعينين زائغتين، ممن تبقى معه من بطانته. تنازل عن الجلوس على الكرسي المذهب وتوسط مستشاريه للمرة الأولى. كان الأوان قد فات، ذلك ما فهم من خلال الصمت الطويل الذي قوبل به. قال لهم:

- خانني الكلب وفرّت الظباء.

يدرك يقيناً أن من بين بطانيته من يفضل أن يكون كلباً أو ظبياً

على أن يتجشم مخاطر منازلة السلطان. نظر إلى وجوههم واحداً تلو آخر. وجد في صمتهم إمعاناً في خذلانه. تحدث أولهم بارتباك. يخشى أن يكون هو آخر ضحايا الخليفة قبل أن تذهب ريح والدِه بسلطته.

– ما كان عليك أن تثير سخط السلطان وفي يده مقاليد الدولة ومفاتيح خزائنها.

رفع الخليفة يده فالتزم المتحدث الصمت. تنحنح فطال صمته.

– الكلام في غير وقته كالبكاء على ميت. لن يعيده إلى الحياة. ماذا علينا أن نفعل؟ ما هي السبل التي بقيت لنسلكها؟ هل نختار المواجهة ببضعة آلاف من الجند أم نمضي في مسارب التخفي ليلاً قاصدين إيالة الجزائر فنطلب العون من الترك؟

ثم ساد صمت أثقل. ثار الخليفة فاكتست كلماته نبرة التهديد:

– اسمعوا يا من قاسمتهم المال والسلطة، ويا من شاركوني في ضرب الرقاب وهتك الأعراض، لن أُشنق وحدي في ساحة فاس، لا بد أن تطالكم يد السلطان الناقم عليكم أكثر مما هو ناقم عليّ. لا بد أن صحبه قد برروا له غِيّي بفساد بطانتي وسوء رأي مستشاريّ، فذودوا عن أنفسكم من هلاك أراه وشيكاً.

نظر إلى قبة الديوان المزهوة بزخارفها وتملى في الأعمدة الرخامية التي بدت أعلى مما كانت عليه. من عينيه الواسعتين طفح الأسى. تمنى لو يعود الزمن إلى الخلف، لانحنى أمام أبيه وسار على هديه كما يسير مؤمن على صراط النبي. طاعة أبيه أكرم من الانحناء أمام من عدّهم أوباشاً.

تحدث صاحب الشرطة، المعيّن حديثاً، غير حافل بتهديد الخليفة:

– الأمر أخطر مما تحسب أنت، ومما يعدّ السلطان.

– أفصح.

– سعد يتربص بالفريقين معاً، إذا تقاتلتما فلسوف يسهل عليه النيل منكما معاً.

– لَئن يظفر خائن بالملك عندي أهون من أن يزيحني السلطان عن كرسيٍّ أنا أولى به.

في غرفة واطئة كمطمورة، معتمة كقبو، في حواري فاس البالي التي لا تصلها الشمس، حيث تتجاور البيوت كمقابر جماعية، كانت زمرة من الرجال يتداولون في ما يجري. بداخل صدر كل واحد منهم كان إحساس بالعظمة والتجذر والقدرة على التغيير يربو. الفانوس الخافت، بذؤابته التي تطلق نوراً شاحباً، يزيد من هلامية الظلال التي تتحرك بانفعال على الجدران. بين كل ظل وظل هامش مظلم، مسكون بآلاف التساؤلات ومجهول كبير.

اختلفوا كثيراً، تضاربت آراؤهم، ثم رسوا أخيراً على ما جاء به ياسر حي:

– أن يذهب المُلكُ للسلطان خير من أن يسقط في يد قائد الجيش.

– لنفتح الأبواب لجيش السلطان إذن.

رددوا في ما بينهم. طلب منهم ياسر حي أن يتحلوا بالهدوء، ويتقيدوا بالتعليمات. أضاف:

- سنرسل مبعوثنا إلى السلطان، ونعرض عليه فتح الأبواب، على أن يتعهد لنا، بإرجاع الممتلكات المنهوبة إلى أصحابها، ورفع الضرائب الجائرة عن الشعب، وعزل القتلة، وتقييد يد الولاة والشرطة والجند، كي لا يعاودوا سيرة المخزن الأولى.

٢٤

"ما عادت الأخبار المتواترة من حضرة فاس تعنيني، تضاءل العالم كله في نظري، ولا عادت أملاكي المسلوبة تثير في صدري نقمةً على أحد، ولا الشجن. كلا، أنا شاكر للخليفة تشردي وهواني، وللصراف أن حثني على السفر إلى حضرة مراكش، وللفندقي أن دلها عليّ، ولنفسي تركها للدنيا وانصرافها للعشق...

أيها الغاوون، أنتم السعداء.

توسدتُ ذراعها أمس ونمتُ كطفل... حلمتُ بنا نسكن خلجاناً يعشش فيها الياقوت والمرجان، حولنا العَسَسُ والجواري يسقيننا في آنية من ذهب...

لعلها جنة الموعودين...

فجراً أيقظتني. تطلعتُ في وجهها فابتسمت. كانت هادئةً بروح ساكنة. سألتني:

– هل حسمت أمرك يا حسن؟

– محسوم كقدرٍ يا شهد.

ضمتني إلى صدرها فبكيتُ، لا الأرض التي سأهجر، ولا ولديّ

اللذين سأخلف ورائي... بكيتُ ما مضى من عمري دون أن تلامس يدي شهد، دون أن ترى عيني وجهها الفياض...

الحياة دونك موت يا قرّة عين".

ساعدها وجهها المخضرم ولسانها الإسباني الذي أخذته عن والدتها، زمن طفولتها، على الالتحاق بجناح المسافرين الإسبان. لمّا سألوها عن حسن ردت بثقة أنه خادمها الذي لا يمكنها أن تخلفه في بلاد المورو.

وقفا على ظهر السفينة التي عبت بشرهٍ مئاتٍ من العبيد وأطناناً من السلع. ارتفع نفيرها بعد ساعاتٍ معلناً بداية الرحلة إلى الضفة الأخرى. في صدره تمزقت عدة أشرعة، راوده إحساس بالخطيئة وشعورٌ غامر بالندم. سريعاً غلفهما العشق بطعم عسلي باذخ. أخذ البر في الابتعاد، كماضٍ تابعته شهد يغرق تحت الماء. لامت نفسها على تأخرها كل هذه السنين في الإقدام على مغادرة هذه الأرض. ما كان عليها أن تبقى. سألت حسن:

– هل تشعر بالأسى؟

حرّك رأسه نفياً.

– لا أسى مادمت إلى جوارك.

الزيّ الإسباني، الأكثر التصاقاً على مستوى الردف والصدر، وشعرها الطويل، المتدلي على كتفيها، كشفا المزيد من مفاتن جسدها. لم يعترض. أدرك تماماً أن خوض حياة أخرى، بمقومات مختلفة، يتطلب منه دفن مبادئه القديمة عن الحشمة والوقار. ما كان مقتنعاً يوماً بورع النساك أو تقوى المتدينين. يعرف أكثر من غيره أن

أكثر صحبه، من التجار والصناع ورجال المخزن، كانوا من عشاق الخمرة والغلمان، لكنهم يلبسون، وهم مقبلون على المساجد، في كل جمعة، الجلابيب، وثوب الورع.

انطفأ البر تحت الماء، معه انقضت فصول من حياتهما معا، فكرت: "الحياة كلعبة النرد، في كل مرة ترسو على رقم"، أما هو فلمس جبرية الحياة بمعنى أدق. فقد السيطرة على نفسه، وعلى ما يجري حوله مذ قرع الصراف باب بيته بعد منتصف الليل، ليجد نفسه مدفوعاً في تيار جارف. كان لكل واحد منهما على مد الرحلة التي خُطِط لها أن ترسو في ميناء قادس، ثم تواصل إلى بلاد البرتغال، أن يتأمل غرابة الحياة التي تجمع وتفرق، وتخلط الأرقام والحروف، لتفرخ في كل حين أنساقاً جديدة.

عصفت الرياح وانتفخت أشرعة السفينة التي انزلقت مبتعدة عن شواطئ أفريقيا. مع اندحار الشمس انكفأ كل حيّ في عوالمه. ظلمات على ظلمات وآمال صغيرة تتحصن خلف رغبة ملحة في البقاء. في غرفة النوم تمددت المرأة التي انتقلت من عاهرة إلى معشوقة، ومن معشوقة إلى سيدة. على السرير كانت مستغرقة في التفكير. في أفقها لاحت عوالم جديدة عن حياة أرحب يكون لها فيها أن تعيش ككائن مختلف، بعيداً عن الدنس الذي وُسِمت به عن كره. تأمل وجهها فجسدها. جلوسه على كرسي إلى جوارها كرّس وضعية العبد والسيدة. ارتخى على الكرسي. هدير الموج الرتيب يعيد إليه ليلة أمس.

البحر يكنس الغبار، يزيل القذارة ويطهر...

استفاقت في الصباح، فاجأها وجهه المتغضّن. سألته وهي تتمدد بكسل على السرير متطلعةً إلى حياة بتفاصيل جديدة:

- ما بك يا حسن؟

- أريد أن أعود إلى بلادي.

٢٥

انتصبت كمحاربٍ عتيد، فخيّم الصمت.

- أيّ جنون يسكنك يا طامو ويجعل منك شيطاناً أوان الغضب وملاكاً رحيماً أوان العشق؟

"نظرتُ إلى السماء فراعني منظر الطيور الكثيرة التي حلقت عالياً فوقي. طيور سوداء تنعق، تحجب نور الشمس بأجنحتها الطويلة وتملأ الفضاء بالصخب كما تملأ الكلاب السعرانة بطون الأودية بالنباح. تذكرتُ مجدداً يوماً بعيداً سافرتُ فيه رفقة أبي إلى قلعة الموكادور في قافلة الحجيج التي تيممت بيت الله الحرام. اصطحبني أبي معه لأعتاد على مشاقّ السبل وأنهل فنون التجارة. خاب ظنه؛ أصبت بالحمى، فتخلفنا، في قرية صغيرة، عن الركب. ذات الطيور السوداء حلقت فوق رأسي في محنتي بجبال يفرن، والسماء نفسها انتصبت، بجفائها وقسوتها التي تشبه قسوة زطاط[1] القافلة الذي رفض أن ينتظرنا يوماً أو بضع يوم، حلت في هيئة شياطين نزقة،

١ قائد قافلة الحجاج، استعملت الكلمة قديماً ولا تزال تستعمل لدى المغاربة حتى اليوم.

لتجمع، كحزام يلف أعواداً، أرضاً بأرض وسماءً بسماء.

لمّا ذهبت ريح الحمى عني، أول مرة، واستعدتُ إدراكي، سألتُ أبي عن الطيور السوداء التي رأيتُ فقال إنها الشياطين. نصحني أن أكثر من التسبيح والدعاء، وأن أحترم مواقيت الصلاة، خاصة الصلاة الوسطى. لبيتُ فور عودتنا إلى فاس، لكن الطيور السوداء ظلت تتعقبني كلما ذهب المرض بحسي.

– هل تتعقبني الشياطين؟

لعلي أحمل روحاً شريرة تحفها الشياطين بدل الملائكة.

منيتُ نفسي بحمائم بيضاء عساها تكون سبيلي إلى الجنة متى ألمت بي المصاعب وغدرت بي المنية، لكن نفس السماء ظلت محفوفة بذات الطيور القبيحة التي تتوّعد بالجحيم".

فتح عينيه، حملق في السقف الطيني، لا يدري على أي أرض يوجد. حاول أن يتزحزح فباغته ألم حاد. انتبه إلى الضمادة الضخمة التي تلف طرفه الأيسر فتداعت الأحداث الأخيرة للزفاف المشؤوم. تأوّه، ثم خرج صوته متذبذباً، مرتعشاً: "طامو، يا طامو". انفتح الباب ببطء، أطلت الخادمة بجسدها المتماسك وطولها الفاره لتتحقق من استفاقة الجريح.

زغردت الخادمة الأفريقية ثم هرولت إلى سيدتها لتزف النبأ السعيد. حملق هو، من على فرشته، عبر باب الشرفة إلى السماء. تذكر أن البيت مشيد على قمة الجبل، محصن بأسوار عالية تحفها منحدرات سحيقة، فتراجع توتره. لن تبلغه يد المعتدين. تراخى، كمن يستسلم للموت. رسا على صفحة صدره غبن وإحساس بالانزلاق.

من بعيد، من لا شيء، انبثقت زوابع صغيرة، متلازمة مع دوار وغثيان. يعرف أن الزوابع ستكبر، تختلط ببعض لتصير أعظم فأعظم، ثم تبتلع الألوان والأصوات والأشكال، وتسحبه، في ضعفه ووهنه التام، إلى حيث السماء الأخرى، المحتفية بآلاف الطيور السوداء وخواء الروح وهلامية الجسد. لا يريد أن يموت غريباً في مستهل الدرب. زغردة طامو وهي تدفع باب الغرفة بوجهها الباش. تردد الصدى في خواء روحه وتموّج وجهها الذي أخذ يتوارى خلف الزوابع التي تابعت توسعها.

– حمداً لله على سلامتك يا رجل، ما حسبناك تنجو...

حاول أن يتحدث، ودّ أن يسألها عن أولئك الذين هاجموه يوم الزفاف، لكن الزوابع النهمة كست السقف الطيني، غطت جسد طامو، ثم محت المشهد كاملاً. آخر الحروف بلغت متمططة، متموجة، ثم انتهت للتلاشي.

"أجهدتُ لأزيل عني الزريق الذي كسا جسدي بالكامل. كان كثيراً. كثيفاً جداً. ينزل كندف لزجة من آلاف الطيور التي حلقت كأسراب جراد. صرخت ملء فمي: 'أبي، أبي'. لكن الصوت لم يبرح حنجرتي. مرت دواب الحجيج جانبي دون أن ينتبه أحد إلى وجودي. وحده الزطاط نظر إليّ شامتاً يدلك لحيته البيضاء. كان سعيداً بتركي في الخلاء فريسة للوحش.

أنا أهلوس. كنت على يقين، مدرك أن هذا العالم ليس عالمي. عالم رديف، أو لعله يقف على التخوم بين عالمين متنافرين؛ عالم للأحياء، وعالم للأموات.

حيث اللاموت واللاحياة تسقط القواعد جميعها.

رأيت مؤخرة القافلة تغرق كذيل أفعى وسط الرمال، أبي ينحى بمفرده عارياً شطر الغرب. توقف، لا استجابة لندائي. تخبط... سريعاً شرعت رمال الصحراء في ابتلاعه.

– هل استغاث بدوره؟

لعل صوته كان عالياً. ما كنت لأسمع. زعيق الطيور غمر الصحراء من أطرافها حتى الأفاق...".

اجتاحتها موجة غضب. أسرعت إلى غرفتها تركب غضبها. ركلت الباب ومن على الجدار سحبت بندقيتها. سبق لها أن قتلت رجالاً كثراً في حروب طاحنة خاضتها باقتدار. لم تتردد الخادمة في إبلاغ الشيخ. في فناء البيت الواسع، حيث كانت الشمس التي يكسر شأوها هواء الغابة ورياح الجبل، كان الجناة الأربعة مربوطين إلى أعمدة عالية من خشب الأرز، تتدلى رؤوسهم على صدورهم كثمار تين ذابلة. صرخت:

– حمو...

رفع حمو رأسه بمشقة يغالب الجوع والعطش. تداخلت قسمات وجهه لما لمح بريق فوهة البندقية تحت الشمس فاتخذ وجه طفلٍ باكٍ. كان يحلم بها زوجةً، بنفسه خليفةً للشيخ. تمتم بالكاد:

– الرحمة يا ابنة الشيخ.

– ما رحمتم أحداً يوم العرس يا أولاد الكلب.

قبل أن تضغط على الزناد حطت يد والدها على البندقية فاستقرت الرصاصة على الأرض. ظلت عينا حمو جاحظتين إلى أن انتزع

الشيخ البندقية من يد ابنته فعاد الرأس ليسقط تماماً كثمرة تين ذابلة.

– قرار مجلس القبيلة نافذٌ يا ابنتي؛ يرمون بالرصاص إذا مات، وينفون من القبيلة إن هو تعافى.

– اليوم يا أبي.

– إنه عرف القبيلة يا ابنتي.

– عرف القبيلة لا يعنيني.

بصقت في وجوههم، صرخت بجنون ثم هوت على ركبتيها وبكت. إحساس بالذنب مزق أحشاءها هِي التي وعدت بالأمان ولم تصن وعدها. نظر إليهم والدها بحِلم شيخ القبيلة. تأسى على شبابٍ ساقتهم الغيرة والطيش إلى سوء المصير. دنا من حمو، ربت على كتفه كمن يواسيه:

– قبلت بكم جميعاً لكنها رفضت. ما كان عليكم أن تعاندوا، لكم أن تختاروا زوجاتكم ولها أن تختار الذي ترتضيه.

٢٦

بزينته الحربية الكاملة، ممتطياً حصانه الأدهم الأثير، تطلع الخليفة، من على التل، إلى الخيام المرابطة على تخوم مدينته المحاصرة. "أزفت النهاية يا صاحبي، وحان وقت رد الدين"، فكر بجفنٍ لا يرف. غمرت الخيام التلال المجاورة بأشكالها الشبيهة بقوقعات السلاحف، هانئةً، مطمئنةً، لا يعكر صفوها جيش مندوسا. تملى نيرانها الجميلة التي أخذت تخبو تحت نور أوّل فجر، وتمنى لحظاتٍ لو كان على الطرف الآخر، يقف إلى جانب والده، كما فعل سنواتٍ خلت، لتأديب متمرد، أو تمهيد طرف. الهالات الفاقعة للسماء، والتي طفقت تتسع في الآفاق، زرعت فيه شيئاً من الأمل: "من يدري لعل الأبوة تتحرك في صدر السلطان الغاضب على ابنه فيعدل عن خيار الحرب". تحدث إليه صاحب الشرطة من على صهوة حصانه. لم يكن ثمة وقت ليهدر في تقليب صفحات الماضي أو للأحلام. أبدى الرجل قدرا هائلا من الاستبسال والثبات:

– لنتفقد جنودنا على الأسوار سيدي.

تقدما على حصانيهما، تعقبتهما فرقة من عشرة جنود. تحدث الخليفة إلى صاحب الشرطة، للمرة الأولى، كصديق، لا كسيد، مقدراً له وقوفه إلى جانبه في محنته:

– لعلك أخطأت بوقوفك إلى جانب الطرف المنهزم. لو أبديت الولاء للسلطان لزادك عما أنت فيه ورفعك في سُلّمِ السلطة مراقيَ. إنها معركة خاسرة يا محمد، ولا أظنك تجهل هذا.

رفع رأسه أكثر. بدا وجهه، بملامحه الخشنة، في عتمة الفجر، كتمثال من النحاس:

– لا أفكر في غير النصر سيدي، هذا ما علمني الزمن، والحروب الصعبة دأبي الذي نشأت عليه.

– جميل.

– ما علينا إلا أن ننظم ما تبقى من جنود على أسوار المدينة.

– إلى متى سيصمد بضعة آلاف من الجنود أمام جيش السلطان؟

– هناك حليف يزحف في ثبات سيدي.

– من؟

– الطاعون.

– كيف؟

– سيفتك بهم الطاعون إذا ما صمد جنودنا على الأسوار أكثر واستمرت الساكنة على ولائها أو على هدوئها.

توقف الخليفة بوجه ساخر:

– إذا ولى جيش السلطان حطّ مندوسا اللعين.

– معركة مندوسا خاسرة منذ البدء سيدي. لا تشغل نفسك به، اترك أمره لي، أنا كفيل بطيّ ذكره إلى الأبد. آمن بالنصر، وحسب، يأتك خصمك صاغراً.

زاد حماس الجنود على الأسوار لما رأوا الخليفة يقف متماسكاً، بزيه العسكري، إلى جانبه صاحب الشرطة بوجهه الواثق. صافح الخليفة الجنود على غير مألوف العادة، حياهم بود بالغ، ووعدهم، في حال الثبات، أن يفتحوا مخازن مراكش وأبواب قصورها بأيديهم. قال لهم إنه سيقاتل إلى جانبهم: "الموت بشرف يعادل النصر أحياناً، ويفوقه أخرى"، وانه "ليس أفضل من أي جندي صامد يدافع عن أسوار مدينته وشرف ساكنيها".

فاس كطائر أسطوري كاسر تقتات على نفسها، تأكل بنهم متجدد من جسدها، مسكونة بحسها القديم، دون أن تنتهي، لا هي ولا أحزانها. تنفق الشمس فوقها، كدمل، لتروي بصديدها عبث الإنسان، وسخرية التاريخ، عن دم ساخن يسيل أغزر في كل مرة، متدفقاً إلى وادي الجواهر، حيث يختلط بمياه الصرف.

أُسْرِجَتِ البنادق، دوى صوت البارود. في صدور الرجال تفتقت زهور شقائق النعمان. تساقطوا فتلقفتهم الأرض بشبق... على الأسوار ينسى المحاربون عداواتهم القديمة، الأطفالَ الجياعَ الذين خلفوا وراءهم في دور بائسة، ويتقاتلون بحماس واندفاع، تدفعهم رغبة الحمية، ذوداً عن المجهول.

المزيد من البارود والرصاص، المزيد من الدم، ومياه حمراء تتخذ لها إلى وادي الجواهر سبيلاً، حيث يمد الطائر الأسطوري

المكنى فاس، عنقه الطويل، ليرتوي بدمائه، قبل أن تترسب في جوف الأرض.

* * *

أنا كنتُ هناك، خلف الأسوار، وفي الخنادق، أرى المدينة الغارقة في الصمت والظلام، وقد قطعتُ الخلوات آتياً من مكان بعيد، لأطلق النار، في معركة لا تعنيني، على خصم لم يؤذني... وكنتُ فوق السور أرتعد من الجوع والبرد، يتهددني الرصاص والطاعون، أنظر إلى الخيام والخنادق ويدي على الزناد، منتظراً زحف رجال يشبهونني في كل شيء. نعم، وكنتُ الطفلة التي تبكي في حضن امرأة تخشى على زوج أجبر على خوض لعبة موت.

أنا الرجل والابن، المرأة الشابة والعجوز، أنا الجاني، أنا الضحية، أصنع الرصاص والقضايا الخاسرة، ثم أطلق الرصاص في لعبة تنفلت خيوطها دوماً من بين أصابعي، ليسيل المزيد من دمي، بحمرة الشفق، إلى وادي الجواهر، حيث تجري مياه الصرف لتسقي حقول البطاطس والنعناع.

* * *

دخل مبعوث الثوار إلى خيمة السلطان، يلازمه جنديان من حرس القصر. وجده على غير ما تخيّل، رجلاً أقرب إلى الضعف من القوة.

لم ينحن الزائر، حياه برأس مرفوعة. تزحزح السلطان في مكانه. لحيته البيضاء وجسده الضامر يوحيان بالحكمة والوقار. على يمينه كان مستشاره يجلس بوجه متغضن ومزاج عكّرته القلاقل التي تعرفها البلاد.

– لَمَ لَمْ تنحن على عادة زوار حضرتنا؟

– لا أنحني لغير الله.

– نعم، لكنني أنا ظل الله على أرض الله...

رد المبعوث بنبرة لا تناسب هيبة السلطان:

– الظل زائل بزوال الضوء، أما الله فباق لا يزول.

ابتسم السلطان في وجه ضيفه وقد أعجبه الجواب.

– كلنا ظلال يا ولدي.

أمر السلطان الحارسين أن يبتعدا عن الضيف، أشار له بالجلوس فامتثل.

– هيا، أرنا ما حمّلك إياه رعايانا من داخل أسوار فاس؟

تحدث الرسول بهدوء، ممعناً في كل كلمة، وبرباطة تكشف القوة والبأس، ما يحفظه عن ظهر قلب:

– من محمد علي الحسيني، المكنّى بالفاسي، إلى حضرة السلطان، ملك المغرب، والمسؤول عن الرعية أمام الله، وأمام الشعب، نقرؤكم السلام ونبلغكم رجاءنا، في الله، ثم فيكم، أن تزيلوا عن البلاد أسباب الضيق والقنوط والغم، مما أتى به ابنكم، وخليفتكم على حضرة فاس، فقد مسّنا بأذاه الضرّ، وبلغ صبرنا

عن بطش الولاة من بطانته الفاسدة مداه، فأرسلنا لكم الرسائل إلى حضرة مراكش، عاصمة مملكتكم، ومعقل حكمكم، وبعثنا البعثات، وها قد جئتم في حركتكم لتعيدوا الأمن المفقود، والحق المسلوب، بارك الله ممشاكم ويسّر مسعاكم وثبّت أقدامكم بالعدل الذي صدحت به الحناجر، ورانت إليه العيون، وحنّت إليه القلوب.

وإذ نبلغكم مسرة الناس بحلولكم فإنهم يرجون فيكم ما لا يرجون في خلفكم ويطلبون منكم عهداً لله ثم للشعب أن ترفعوا أيدي الولاة عن أعناق الرعية وتزيلوا الضرائب التي لم ترد في الشّرع ولا ذكر لها عند السلف، وتضربوا على أعناق منتهكي الحرمات ومستبيحي المحارم. إن عاهدتمونا، وليس ذلك بعزيز على الله وعليكم، فتحنا لكم أبواب فاس يدخلها جندكم دون كثير عناء، ويسَّرنا لكم امتلاك زمام الأمر، بكشف الفلول وسحق المتخاذلين، إلى أن يستتب الأمن وتطمئن القلوب... وفقكم الله لما فيه الخير والصلاح.

- ولِمَ لمْ تحضر معك الرسالة مكتوبة كما يقتضي العرف؟

- مكتوبة في الصدر يا حضرة السلطان، وما يكتب في الصدر ويلفظه اللسان ويصونه العهد، لا يحتاج إلى ورق.

- والله ما لقيتُ رسولاً في مثل فطنتك.

التفت السلطان إلى مستشاره الذي أبدى استحسانه لما سمع، ردّ بوجه باشّ:

– قل لهم إني ما جئتُ إلا لهذا ولن أحيد عنه حتى أرفع كربة المظلوم وأعيد لكل ذي حق حقه، فليفتحوا الأبواب، وليكن بمشيئة الله ملتقانا في قصر الخلافة، وفيه ننظر إلى قضايا الرعية، ونسوي ما اعوجّ في غيابنا.

نظر إلى الحرس:

– أكرموا مثوى الرسول، ثم أمنوا له طريقاً آمنة إلى أن تطمئنوا عليه ويأذن لكم بالانصراف.

استبقى السلطان أحد الحارسين، وكما لم يتوقع مستشاره، أمره بعيني ثعلب:

– اضربوا رقبته وألقوا رأسه حيث ينتظره صحبه.

٢٧

لم تفاجئ فكرة الزواج حارس الربض. أن يقترن رجل بامرأة، وإن في سجن، أو أوان الجوائح، أمر معتاد، ولعلّ الحب يواتي زمن القهر أكثر مما في زمن الرخاء. صافحه بحرارة. بوجه باشّ قال له:

– زهرة المقري رائعة وتستحق اهتمامك.

تطلع أحمد بلانكو إلى الأكواخ المتواترة لصق السور العالي ثم تأمل كومة الحجارة المغطاة ببطانيات وبراقع يكسوها الغبار وسط ساحة الربض الواسعة، رآها تغص بالرجال والنساء...

– لكننا نفكر في الاحتفال بزواجنا.

– تقصد...

– نعم، أن نقيم عرساً...

"أي جنون"، فكّر الحارس.

– على رسلك يا رجل، نحن في زمن الوباء والحرب.

شيئاً فشيئاً أخذت الفكرة تسلك طريقها إلى صدره. تخيّل بؤساء ربض الطاعون وهم يكركرون نكايةً في زمن الهزائم، رأى النساء المقهورات يرقصن، يحركن أردافاً يبسها الجوع وجففها الضيم.

ترددت الزغاريد في أذنه وتحركت مياه طال ركودها في مسارب ذاكرته. اشتاق بدوره إلى الفرحة التي نسيها الناس منذ زمن، وتمنى لو يستبدل حال البؤس بغيره. سرح بعيداً في جنان أشجار اللوز المزهرة، والحدائق المشذبة، إلى أن أعاده صوت أحمد بهدوئه المثير:

– لسنا معنيين بهذه الحرب. إنها حرب الخليفة ضد أبيه.

تتالت المشاهد في ذهن الحارس، استحضر زمن الرخاء، الأعراس التي حضرها أيام الصبا بطقوسها الباذخة وأعرافها الصارمة؛ ذلك الحصان الأبيض الذي يمر، عبر شوارع فاس البالي، مختالاً يحمل العروس المحفوفة بعشرات النساء اللواتي يشيعنها إلى بيت العريس، متبوعةً بالحمالين يرفعون أمتعتها على أكتافهم، واحتفالات أعياد المولد النبوي والفطر والأضحى. أيام تحفظها الذاكرة وتشتاق إليها الأنفس. وهل يستطيع أن ينسى الحلوى الفاسية التي تصنعها أيدٍ ماهرة، وفاكهة رمان بلا حَب، وعنباً ليس في مثل حلاوته عنب...؟ أما الحرب المستعرة على أسوار فاس فليس معنياً بها. ردد يؤكد ما قال أحمد:

– إنها حرب الابن ضد أبيه.

– لن تمانع.

– لكم أن تفعلوا ما شئتم فعمر الخليفة أقل من عمر بعوضة.

فتح الحارس باب غرفته الخاصة ثم دعا أحمد للدخول. "شيء ما يلوح في الأفق سيدفع الغيوم التي تثقل على سماء هذه الأرض وناسها". راوده حدس قوي في زوال البؤس، وعلى نحو فجائي

قرر الانخراط في لعبة العرس. لن يبقى الخليفة طويلاً، وقد يستبدل حكم السعديين بمن هم أحسن منهم وأوفى.

لمح أحمد البندقية المعلقة على الجدار، فتذكر صديقه المتوفى. اعتاد علي المراكشي على تثبيتها في نفس المكان ولم يحملها إلا ليفتحها في وجه رجال المخزن والطغاة، في عمليات كان يحلو له أن يطلق عليها بتر الأطراف. مات الرجل المتمرد فورثها عنه خلفه الذي أعادها إلى مكانها دون أن يزحزحها قط.

لاحظ أحمد أن الغرفة استمرت على حالها؛ بسيطة وبائسة، لكن روح شاب يافع وفوضوي تسكنها. على المنضدة الصغيرة بقايا حشيش وكأس شاي منتصف، في الزاوية اليمنى، حيث فرش سجاد أطلسي الصنع، تكومت أغطية من الصوف ومخدتان، ومن السقف يتدلى حبل ينتهي بفانوس معلق كجسد رجل مشنوق.

جلس الحارس فوق كومة البطانيات، أسند ظهره إلى الجدار تاركاً ساقيه ممدودتين:

– أنا مثلك يا أحمد، أكره الخليفة والوالي وصاحب الشرطة؛ أمقتُ البذلة التي أرتدي كل صباح.

ثم عصفت في مسارب ذاكرته رياح الماضي، أشبه بزوابع رملية تتابعت مثيرةً ما كمن. مدّ يده تحت السجاد، سحب قطعة حشيش، حشا غليونه ثم طفق في التدخين. سأل أحمد:

– أقصّ لك قطعة حشيش؟

– لا أدخن.

– خسارة. الحشيش يرخي ويدفع النفس للتحليق. أتعرف،

أرى كل القادة قردة تنط، تفقد الدنيا وجهها القاسي، الخشن، حتى السياف يصير وديعاً كعروس.

عاد للانتصاب، فتح النافذة الصغيرة التي تشرف على ساحة الربض. كم كره هذا المشهد الذي تحول إلى صخرة تثقل على صدره. "تفو" بصق. على بياض عينيه طفح رفض مقيم.

– كرهتُ نفسي يا أحمد، وندمتُ لقبولي ارتداء هذا الخراء. هذه البذلة عار.

– لا تبتئس.

نفث الدخان بهدوء استثنائي. تحدث كأنما يكلم نفسه:

– سأحرقها عما قريب.

التفت إلى أحمد وقد برقت عيناه:

– زفافك بعد يومين أو ثلاثة يا أحمد، وليكن العرس عرسين...

– ثلاثة...

تباطأ الزمن منذ حطت جحافل السلطان الغاضب، وتسارعت الأحداث. كما في كل حرب، يتداخل الصمت المشوب بالخوف والهرجُ المسعور الذي لا يعترف بغير الرصاص. تأخذ العيون في التطلع إلى الفرج القادم على صهوات الموت، وفي الصدور، في زوايا معتمة من الروح، تدب كالنمل، آمال صغيرة تدفع إلى الاعتقاد أن الدم إذا جرى طهر. النساء الصامدات في بيوتهن، أمام المخزن والطاعون والجوع، يفتحن دفات النوافذ لتدخل فرقعات القذائف بالسكينة بدل الرعب. سئمن الصمت والزمن الراكد، وأعلنّ التحدي، فظهرن على عتبات البيوت بلا أثواب سوداء ولا غطاء رأس. يتغير

طعم الحياة، ينفلت المعنى، أكثر، ثائراً على سلطة الحروف، وتنبث الألوان على جنبات الطرق، تحت الأسوار المطلية بالدم، المحتفية بأطراف المتحاربين وقبضات السيوف المكسورة. الحارس الذي وجد في مجرى الأحداث سبيلاً لولادة متأخرة حسم خياراته واعتزم على أن يقرن انبثاقه بالقصاص ممن أذله.

إلى داخل أسوار الربض تتناهت أصوات فرقعات قذائف المدافع. في السماء تظهر أرواح المعذبين وهي تحلق متحررةً من أجسادها، تحوم فوق المدينة كغبار، أو في زوابع، قبل أن تتلاشى تاركةً السماء لأرواح أخرى. بين كل فرقعة وأخرى يزهر الصمت، يربو، يتبرعم، إلى أن يأتي هدير فرقعة تملأ الآذان وتناوش حلماً بعيداً بالفكاك.

يتكلم الحارس:

– الآن يموت رجال على الأسوار وخلفها. رجال لن يذكرهم التاريخ.

– وهل يذكر التاريخ الخراف؟ علق أحمد.

– قرابين تذبح على عتبات القصور ليستمر المكوس.

سحب نفساً عميقاً فانفتحت في ذهنه نوافذ كثيرة؛ عشرات النوافذ التي لن تغلق أبداً. تابع:

– يسقط البعض مثخناً بجراحه وتدق أعناق... وعلى مسافة أمتار يقف رجلان يملأ صدرهما الحقد، ويعميهما المُلك، في لعبة بليدة... القوادان.

يتمايل رأسه منتشياً حشيشاً فواحاً. يتابع:

- لِمَ لا؟ يقام العرس، أدعو لأجله الطباخين والسقائين...

كركر.

"سآمرهم أن يفرغوا كل مؤونة الربض في ليلة واحدة، لن يكون لها داعٍ. لا بد أن تشرق الشمس على محبسٍ خاوٍ. الطاعون في كل مكانٍ، أما هنا فلا يوجد غير المظلومين الذين أريد لهم أن يموتوا بالقهر والوباء. رائع، وليأكل الجياع، ليرقصوا ويتقاذفوا قطع الخبز، وليعبوا الإدام حتى يسيل المرق، كما يسيل الدم، على شفاههم التي اشتاقت للبسط".

التفت إلى أحمد بعينين حمراوين ثم مد يداً مرتخية ليشد على يده:

- زفاف مبارك يا رجل.

٢٨

ارتعشت وقد لمحت طلائع البر الأوربي، لاحت لها رؤوس التلال المشرفة على المحيط كقبعات نساء يقتربن في ثباتٍ. قفزت فرحاً كصبية، نطت فوق السرير، وعلا صراخ البهجة في جنون.

– بلاد أمي يا حسن؛ إسبانيا، إسبانيا...

شرعت في لمّ حوائجها تردد الأغنية التي حفظت عن أمها، والتي رددت لسنين طويلة متمطقة كل حرفٍ، مرسلةً عبر كل كلمة معنى يتجدد كمياه النهر:

Escribiste en la arena
y firmaste en la mar
el aire fue tu correi
iyaya seguridad.

لن تلوم والدتها على هجرها. بل ستغفر لها كل العذاب الذي تسبب فيه الغياب الطويل. وعلى مرآتها الصغيرة زينت وجهها وصففت شعرها. حسن استمر يتأمل البر الذي واصل تقدمه في ثبات كقدرٍ محتومٍ لا مناص منه.

ميناء قادس يدفع لساناً أغوته لذة الشفق الأحمر الناعس على الماء، يمطه في دكنة المساء مستطعماً دم المهجرين النازف. يتمادى مستكبراً ليُشعِر الوافدين بالذل.

من على ظهر السفينة تابع القبطان، المأخوذ بعظمة إسبانيا الجديدة، باعتزاز وافر، شرم قادس؛ فنجان الفضة الذي يغوي بالسّمر والأنس في مدينة المائة قصر، ثم انقلب ينظر إلى المحيط متأملاً بحراً من الأنوار، من حيث انطلق، في يوم مشهود، كريسطوف نحو العالم الجديد، معلناً نهاية تاريخ وبداية آخر.

رست السفينة أخيراً وقد لعق الميناء المزيد من خيوط الضوء. في الأفق المعتم ارتسم شفقان؛ أول ينحدر إلى الغرق وآخر يرتخي على وجه البحر موحياً بالغطرسة.

– أيهما سيغرق أولا؟

قال لها. ردت بالطريقة التي تتقنها المراكشيات:

– سيتعانقان يا حسن لتشرق الشمس يوم غد.

النفير الموصول، النوارس التي تحلق وتُغِير بحثاً عن السمك، حركة العمال الدؤوبة... ودكنة المساء التي تزداد في السماء فتحول الماشين على الأرض إلى أشباح. تزداد العتمة فتظلم النفس، يضيق صدر المقري فيترنح ظله على وقع الفوانيس.

– أوروبا باردة يا شهد.

– وماذا ربحنا من دفء أفريقيا يا حسن؟

أمسكت بيده، ضغطت على أصابعه. شعرها المتدفق على صدرها ووجهها الإيبيري يشعرانه بالانتماء إلى هذه الأرض. لن يقترف نفس

الخطيئة مرتين؛ بلاده حيث حطت شهد، فيها مسكنه ومأواه ومثواه. لم يسألها أحد من موظفي الميناء من تكون، مشت بخطوات واثقة، تعقبها هو كعبد. انتبه إلى مشيتها المتأنقة، رأسها المرفوع، وعينيها المتألقتين، فتعمق عشقه لها وإحساسه بالضعف.

انتصبت على رصيف شارع الميناء باختيالٍ تستعيد وقفة والدتها زمن طفولتها؛ تدفع صدرها الباذخ تاركةً للرياح أن تغازل خصلات شعرها كما تشتهي. لم تكن هي من تقف على رصيف الميناء، كانت أمها تسكنها بماضيها وتتحلى في هيئة امرأة لم تبلغ الثلاثين بعد. نظرت بإعجابٍ إلى ممشى كناليخس. التفتت إلى المقري.

– ما رأيك في إسبانيا يا حسن. أليست جميلة؟

انتزعته من شروده.

– أنت أجمل يا شهد، أجمل والله.

كركرت وقد أغواها مشهد الشارع الفخم. أعادت كلماتِه، ساخرة، تقلده في انحناءة ظهره وإحساسه الجليّ بالانكِسار:

– أنت أجمل يا شهد، أجمل والله.

رفعت يدها تطلب الحوذي، مثلما كانت تفعل أمها لما تأمرها بالمجيء. أمالت معصمها بأناقة سيدات القصور تاركة مسافات محسوبة بين أصابعها. سألها الحوذي عن وجهتها وقد انحنى مزيلاً قبعته عن رأسه:

– إلى أين أيتها السيدة؟

– حي إل بوبولو، رقم المنزل ١٣ يسار البوابة.

قفز إلى الأرض، ساعدها على الصعود إلى العربة. أخذ الحقيبة

عن حسن. سألها باستخفاف:

– بكم اشتريتِ هذا المورو البائس؟

– إنه زوجي يا فتى.

تفحصه بازدراء:

– عفواً سيدتي، عليه أمارات عبد.

امتطى كرسيه الخشبي الضيق، لسع ظهر الجوادين بالسوط فتتابعت المنازل. مضوا عبر ساحة السلاحف مخلفين شارع الميناء يقصدون حي إل بوبولو. بدت شهد شهيةً فعلاً، منسجمة مع الجو البارد وأضواء الفوانيس العملاقة التي تنتشر على الرصيفين. البيوت العملاقة، المسقوفة بالقرميد الأحمر، والتي تعكس ثراء الإمبراطورية، أشعرتها بالزهو. التفتت إلى حسن المستسلم لمجرى الأحداث:

– أنا ميرا يا حسن، ميرا التي أُنجِبت ظلماً في مكان خاطئ، الإسبانية التي عادت إلى أرضها بعد سنين عجفاء.

حرك رأسه متجاوباً:

– أنت ما تشائين يا ميرا.

– أما أنت فكونزالوس.

– أنا كونزالوس يا ميرا.

تابعت أضواء برج "تافيرا" الذي يقف كحارس أمين في مقابلة المحيط، وهي تبتعد. فكرت: "لا بد أن ينتهي الماضي كاملاً فلا يعود للذي كان ذِكرٌ". حسمت أمرها. واصلت:

– شهد تركتُها في مراكش مدفونةً في ذاكرة الرجال الذين مروا على جسدها. شهد لا تصلح أن تكون سيدة، أما ميرا، السيدة

الإسبانية الأنيقة، سليلة آل رودريكس فامرأة أخرى.

– إلى أين نتجه يا ميرا؟

– لا تكن عجولاً يا كونزالوس، ينبغي أن تنسى حسن المقري، وطفولتك التي أمضيتها في قبيلة الرحامنة، وشبابك الذي أهدرته في جمع ثروتك بين أسوار فاس ليأتي الخليفة عليها كما تأتي النار على الهشيم. تناسَ أوجاعك القديمة وانظر إلى حاضرك، ستتعلم اللغة الإسبانية التي سيتكلم بها أبنائي.

مرت العربة بمحاذاة كتدرائية لم يسبق له أن رأى في مثل علوها مبنى. أشارت بيدها:

– هنا سيعمدنا أب صالح، وفي نفس المكان نعلن زواجنا.

– لكنني مسلم يا شهد.

صرخت في وجهه. كانت المرة الأولى التي تفعل. التفت الحوذي إليهما ثم أشاح. عاد صوتها إلى الهدوء. تكلمت برصانة أمّ تهذب ابنها الذي لم يطع أوامرها:

– اسمع، أنا ميرا، ميرا رودريكس التي لن تحب أبداً غير كونزالوس.

كلمات الأغنية بالعربية:

كتبت على الرمل
وقعت في البحر
بريدك الأثير
فيا له من وثوق.

٢٩

"صرخ الزطاط في وجهي:

– لم تمرض مع كل قافلة تشدّ الرحال؟ دائم التخلف عن الركب.

أشاح ينظر نحو الجنوب. أضاف بسخط:

– يسوقك حظي العاثر إلى قافلتي لنكون مجبرين على التوقف مع كل نوبة حمّى.

للزطاط ذاكرة، كالتي لديّ، ووجود خاص، مثلي. هكذا خمنتُ. ليس مجرد طيف ينبثق في غياهب أحلامي ثم ينطفئ. وجه متفرد، جاف كالصحراء، بعينين غامضتين كأسرارها. قلتُ له وأنا ممدد فوق برقع فرش على الرمل:

– كلا، حظي العاثر أنا، لا أنت، من يسوقني إلى قافلة لا ترسو على أرض.

أنا أعرف هذا الزطاط جيداً، كمعرفتي لأبي وأمي. في كل مرة تُحْشَى ذاكرتي بالتفاصيل تأتي صورته أكثر وضوحاً، غير أنها تتبدل مع كل حلم، حمى، مع كل الكوابيس التي تمخر دروبي. رجل يعيش كشبحٍ متنقلاً على رأس قافلته بين ذاكرة وأخرى لرجال بعدد حبات

الرمل، يعرفه الصحراويون أكثر من غيرهم، يهابه الرحالة ويعشقه العابثون. رجل يشيخ على حساب أعمارنا ولا يموت.

نظر إلى الأفق، أسراب الطيور نفسها تأتي من بعيد كغيوم تزحف على ناصية السماء. انحنى، دسّ يده، التي تشبه أفعى، عميقاً في الأرض، انتزعها ثم انتصب مبقياً على حفنة رمل. ركب على ظهر الجمل. وجوه ركاب القافلة، الذين كانوا منتصبين كأخشاب، استمرت غير مبالية، بائسة، وغارقة في أحزانها، تكابد قدر الترحال القهري، دون أن تملك الجرأة على مغادرة القافلة أو التمرد على أوامر زطاط أدمن الصحاري. هَمّ بالرحيل. شعرت بالشمس تكوي جسدي، بحلقي جافاً. صرخت:

– وأين أبي يا زطاط؟

ابتسم على مضض، أشاح نحو الغرب. تحرك الجمل فتحركت القافلة برمتها. في الاتجاه المعاكس كانت الطيور قد أخذت في ملء السماء بسوادها وصخبها. سمعته بالكاد:

– لا تريد أن تموت الآن.

تعلقت نظراتي به كما يتشبث طفل بجلباب أمٍّ تهدد بالرحيل. انزلق اللثام الأزرق، الذي يغطي رأسه، على كتفيه، فبرز شعره المشتعل شيباً. لم يكن بمثل القسوة التي رأيته عليها من قبل.

– كلا، ليس بعد.

رفع رأسه وقد غطت ظلال الطيور وجهه:

– ليكن لنا لقاء آخر.

ألقى حفنة الرمل على وجهي. شعرت بالاختناق؛ بالرمل يخترق

فمي ويتسرب إلى جوفي. سعلتُ بشدة حتى تقطعت أنفاسي. لحظتها كانت الطيور فوقي تماماً. أطلقت يدي لأدفعها عني. من خلف الحجاب الأسود تلقفتني يد باردة، ناعمة وعطوفة... صرخت بما تبقى من جهد:

– أدركيني يا أمي".

"لما تشرع الشمس في الاحتضار، على جبال الأطلس، تبكيها الأشجار كل مساء"، قالت طامو لحبيبٍ عاد من تخوم النهاية إلى أحضانها. كان الأوان مساءً والشمس اللاهثة ترخي مخاطها الشاكي على نواصي المرتفعات، وعبر الوادي السحيق يتعمق اللون القاتم، الذي يسبر بطون الأودية، ليسبق بسواده حلكة الليل. رفعت إبريق الشاي عالياً واستمتعت بخريره الذي يذكرها أبداً بأماسي الأنس. تابعت وهي تمد الكأس إلى زوجها الذي أخذ في التعافي وقد رحل عنه الزطاط بقافلته إلى صحاري أخرى:

– وفي الصبا تزغرد لولادة الشمس.

تدفع الكأس إلى زوجها، تواصل:

– منها تعلمت أن الحياة تتفتق من الموت. حتى الدمار قد يأتي بالعمران مثلما قد يسمح قتل رجل واحد بولادة العشرات.

وجد كلامها قاسياً وجديراً بالاهتمام، لكن جمال عينيها الأطلسيتين أنساه شدة لسانها. هزت رأسها. بدت أكثر إغواء. الزيّ الجبلي الأبيض، المزين باللبان الملوّن، يجعل الأنثى أكثر إثارةً. تعمدت أن تترك أجزاء من صدرها العاجي مكشوفةً، كنوافذ تهب عبرها إليه رياح العشق. تمنى أن يمد يده إلى ثمارها، ويداعب

تفاحتين ناضجتين، لكن جسده ما زال ينوء تحت آثار الجرح.

- نجوت يا نوارة الروح، أما خصومك فلا يزالون معلقين بين الحياة والموت.

ترك رأسه يرتخي. الجدار الطيني بارد يذكره ببرودة الدهليز الذي عبره ليلة الرحيل. ردّد هازئا:

- بضعة أيام تأتي كإعصار. ما تركت العاصفة شيئاً على حال.

وضعت كأس الشاي على الصينية، انتصبت، ساعدته على الوقوف. لا تزال الأرض تميد تحت قدميه. استند عليها، ثم خطوَا إلى الشرفة، حيث انفتح الأفق على بقايا شفق هارب.

- انظر إلى تحت.

في دكنة المساء أمكنه أن يلمح رؤوس شبان أوثقوا إلى أعمدة من خشب. أضافت بنبرة حاقدة:

- لست ممن يغفر الخطايا العظيمة. أنا لستُ كأبي ولا أريد أن أكون كأمي التي تقود القبيلة من خلف زوجها...

التزمت الصمت برهة ثم تحدثت بما أمكنها من حقد:

- ومن أراق دم غيره وجب عليه أن يدفع من دمه، لا من جيبه. توافقني الرأي؟

- أوافقك.

قهقهت. من تحت رفعوا رؤوسهم بمشقة متوسلين لامرأة لا تعرف كيف تغفر الخطايا.

ثلاثة ليالٍ بلياليها مضت متلكئة، عرجاء، حاربت خلالها طامو رغبةً شعواء في رد الدين. رفضت منذ يفاعتها الترضيات التي تأتي

بالحلول الوسطى. "أنا لستُ كأبي يا بُلَهاء"، تقول كلما نظرت إلى أولئك الطائشين الذين أفسدوا برعونتهم ليلة زفافها. ما خفّف من نارها تعافي زوجها الذي استعاد القدرة على مغازلتها بعد ليلتين، ولا أيام الجوع والعطش التي قضوها مربوطين تحت لهب شمس النهار القائظ وزمهرير برد الليل القارص.

– ماذا تخفين يا طام؟

سألها وقد أثاره إغراقها في الصمت، ونظرتها العميقة، الساهمة، في الأفق. ما كان مستعداً لعاصفة أخرى تعيد بعثرة عالمه من جديد. لم تجب. اكتفت بتحريك رأسها. تابع:

– طام، صمتك هذا مريب، يبعث على القلق، فاحذري الغضب فإنه متى ترك الإنسان للحقد أن...

قاطعته:

– الخليفة في فاس يتهاوى. ذهبت الأيام السبعة من القتال بمعظم رجاله. ستفتح الأبواب غداً أو بعد غد. ألا تفكر في الرجوع إلى قصر والدك؟

– زهدت في يا طام؟

– لعل الحياة في فاس أجمل مما هي عليه هنا.

قالت قبل أن تولي مخلفةً تساؤلات كثيرة في خلد زوجها. نام متأخراً غير مطمئن البال. قبيل الفجر أيقظته. راعه زي المقاتلين وفوهة البندقية التي تطل من خلف ظهرها.

– خيراً يا طام؟

– ارتد ملابسك واتبعني.

في الحوش كان ثمة حصانان جاهزان للرحيل. دفعت الباب الخشبي الكبير ثم مدت إلى زوجها بندقية استلتها من خرج الحصان. كان الليل بهيمياً، وحده الفانوس يشع فتظهر بالكاد الأرض المنبعجة وأولئك البؤساء الذين ما زالوا موثقين. صرخت في وجهه وهي تركب حصانها:

– حامد؟

كانت المرة الأولى التي تناديه فيها باسمه الصحيح بدل "محند" على طريقة ساكنة الجبل. تابعت بلهجة آمرة:

– أطلق عليهم النار واركب حصانك.

باغته الأمر. شعر بالبرد، بقدميه قطعتا جليد. فكر في استعطافها. يعرف من خلال الأيام التي قضاها معها أنها لن تلين. استجمع قوته، وبصوت حاسم أجاب:

– لا أستطيع يا طامو، لم أقتل يوماً أحداً.

– ستفعل اليوم وستقتل من كاد لك ولي...

حرّك رأسه رفضاً:

– كلا يا طامو، لم أفعل ولن أفعل...

رفعت رأسها إلى أعلى بصبر نافذ، نظرت إلى سحنة السماء السوداء، تمتمت:

– أهل فاس أنصاف رجال.

التفتت إليه، وجهت فوهة بندقيتها إلى صدره.

– أنا لا أمزح يا هذا، أطلق النار وإلا أرديتك.

بيد مرتعشة صوب فوهة البندقية، ضغط على الزناد، فتردد صدى

الفرقعة بعيداً. كان أشبه بصراخ مسعور في جوف بئر جافة. لم يرَ، في حلكة الليل، الدم الذي فاض، ولا من أي ثقب تدفق. أطلقت بدورها على الرجل الثاني، فالذي يليه. صرخت في وجهه فأكمل المهمة بإطلاق النار على البقية.

ركب حصانه مرتاعاً، وتعقب زوجته التي أسرعت عبر المنحدر بانسياب أفعى. من خلف تعالى صراخ والدها الذي أصابته فعلة ابنته بالجنون.

"يا ويلي مما أتت به يد ابنتي"، قال الشيخ الذي طاف بين الأجساد النازفة. راعه هول المشهد وتلك الثقوب التي خلفتها الرصاصات، وهي تعبر عتمة الليل، قاصدةً جماجم شبان يافعين.

٣٠

صرخ ياسر حي من هول المفاجأة:

– أيّ جنون هذا؟

أمسك الذي جاء معه برأسه ونظر إلى السماء "رباه". لم تكن عليها أي نقطة ضوء، وكان في صدره سواد بقدر ما في السماء من حلكة. غالب إحساساً منفلتاً بالغثيان، ودون وعي ضغطت يده على مقبض سلاحه. غمغم:

– تباً لميتة الرسل، يُقَتلُون دون أن يكون لهم أن يشهروا سلاحهم في وجوه خصومهم.

سقط ياسر حي على ركبتيه... نفس الذهول ارتسم على عينين جاحظتين باغتهما الموت في غير موعد، وتلك البسمة الساخرة من الحياة، الناقمة على من فيها، المرسومة بُشفتين لطخهما دمه المتلكّد. استعاد آخر الكلمات التي دارت بينهما وقد حزّ في قلبه أن زميله ما ذهب إلا تلبيةً لرغبة المجموعة. رفض عصام الأنصاري الفكرة، قال لهم إن من يتعاهد مع المخزن كمن يمد يده إلى السراب، ما يكاد يبين له حتى يتبدد. ربّت ياسر على كتفه ساعتها ثم أجاب بوجه باش:

"لا عليك يا صاحبي، أنا أبغض المخزن كما تبغضه، وربما أكثر. ليس بين أيدينا من خيار ثالث، إما الأب أو جيش المخصي الذي لن يرحم أحداً".

مد يداً مرتعشة إلى الرأس المقطوعة ثم أجهش:

– عذراً يا عصام، عذراً يا صاحبي.

دسّ وجهه في التراب وقد أظلم العالم في عينيه وسدت السبل أمامه. ساعده زميله على الوقوف.

– استهدِ بالله يا ياسر ولا تحمل نفسك ما لم تقترف يداك.

– الحمقى...

حرّك رأسه نفياً:

– ليسوا كذلك يا ياسر. السلطان يريد دخول فاس قاهراً، أن يفتح الأبواب وسيفه فوق الرقاب جميعاً حتى يكون صوته الأعلى ويده الأطول. إذا قبل بما تقدمنا كان انتصاره مشروطاً. مستهجناً عند البعض ناقصاً عند آخرين.

– وماذا نفعل وقد راهنّا على السلطان؟

– لا أدري، والله لا أدري يا ياسر. لعلنا نجد مخرجاً عند الفاسي.

– الفاسي ليس أعلم منا في شيء.

أمسك ياسر بندقيته من فوهتها ثم ضرب كعبها مع الجدار فانشطرت نصفين. رمى الفوهة التي ظلت بيده بعيداً فجاء رنينها حاداً على حجارة الطريق الصقيلة.

– ماذا نفعل بالبنادق إذا لم نعرف في وجوه من تفتح؟

تمالك ياسر نفسه وهو يمد يده إلى الرأس المقطوعة، ضمها إليه

كما يحتضن أب ابناً عزيزاً ضاع لتقصير منه، ثم مشيا باتجاه مقبرة المدينة التي ضاق صدرها، على رحابته، بموتى الحرب والطاعون. كان الفجر قد انبلج منذ دقائق، ولاحت في السماء الهالات الشفافة الأولى للنهار. في المقبرة تفاجأ صاحبه بقراره الأخير:

– والله ما تدفن الرأس إلا وبقية الجسد معها.

– كيف يا ياسر وجسده في معسكر السلطان؟

سلم الرأس إلى صاحبه، كما يسلم لواء في معركة، ثم انقلب:

– قل لهم إني ذاهب إلى معسكر السلطان إما أن أعود بالجثمان أو أهلك دونه.

عاد الرجل إلى رفقائه يتأبط الرأس. لم يستغرب أحد من سكان الأحياء التي مرّ منها من مشهد مقاتل يمضي وعلى يمينه بندقيته المرفوعة كرمح، وعلى يساره رأس مقطوعة. الموت في زمن الحرب والوباء طقس معتاد، تفقد معهما الكثير من القلوب الرهبة من النهايات البائسة. ما كان ليثير الدهشة حتى في قلوب الأطفال الذين نظروا إليه بفضول، عبر نوافذ ضيقة، ثم نسوه، ليتابعوا مشاهد أخرى أكثر قسوة.

٣١

زغردت الخيزرانة العجوز ابتهاجاً بآخر أفراحها... في صدرها فاض الحنين فتداخلت الأزمنة ببعض، كما يتداخل الحلو بالحار. جاءت زغرودتها الطويلة متموجة، تحمل خلاصة عمرها المديد. غدا ظهرها أكثر تقوساً، وقد سكنته البرودة ووهن الشيخوخة، فقابل وجهُهَا المتخشبُ الأرضَ. من يصدق أن هذه المرأة العجوز كانت يوماً ما آية من آيات الجمال التي تنطق البكم. صار ساقاها أشد نحافة وقد انمحى خصرها تماماً. تخلت عن منديل الرأس فظهر شعرها الشائك ملطخاً بحمرة النهايات. يد على العكاز، أخرى على فمها، ليعانق صوتها، الذي استمر وحده قوياً كما كان، المدى المفتوح، المغلق، لربض الطاعون. تمور الريح، تدفع ثوبها الأسود، فتنكشف عظام يابسة يكسوها جلد جاف. على عينيها بريق الذكرى، أو لعله وميض الموت الرابض على بعد سويعاتٍ كخلاص أخير. ما كانت تنتظر من الحياة أكثر مما شهدت ولا تمنت أفضل مما جنت. عاشت مجدها في قصور المخزن راقصة فعاهرة، ثم خذلانها في مزابل العامة، وكان في صعودها ونزولها تجلٍّ لكل معاني الحياة.

لم تتردد وهي واقفة وسط ساحة الربض، على مقربة من منحوتة الحاج عمرو الزرهوني الإدريسي التي استمرت مغطاةً كلعنة مهابة، في رفع أطراف ملحافها، والبول حيث هي. لا مجال لتفويت أي لحظة من عرس المقهورين، وما كانت لتتردد في قضاء حاجتها بالكامل وسط الجمع. لن يهتم أحد بالتطلع إلى مؤخرتها اليابسة، ولا إلى أرضها اليباب إن تعرت.

كان الديلائي الشاب قد دخن قطعة حشيش معتبرة، تليق بعرس الموتى الوشيك، قبل خروجه من غرفته إلى ساحة الربض، وعلى أغصان شجرة زيتون يابسة علق بذلته المخزنية بعدما حشاها بالتبن. بدت وهي تتدلى تحت الأغصان، إلى جانب سور الربض العالي، كجسد رجل مشنوق تؤرجحه الريح.

– مات المخزني الذي سكنني عنوة. مات خادم الخليفة والبلاط.

قال للخبازين الذين فوجئوا به يرتدي برنساً أسود وقميصاً أبيض، وعلى رأسه "رزة" حمراء. صوّب رصاصة إلى بطن البذلة التي تمزق وسطها فتدلت منها حزم التبن كأمعاء. التفت إلى الخبازين:

– اعجنوا كل الدقيق الذي في المخزن، وأفرغوا كل مؤونة الزيت، حتى إذا شبع من في الربض أطعمتم الجياع خارجه بما تبقى... وخذوا لأهليكم، لن يحاسبكم أحد.

شعر بنشوة متزايدة وهو يفتح الأبواب التي تقسم الربض إلى أرباض صغيرة، وبلذة متناهية وهو يصرخ بأعلى صوته ليزف بشرى للمعذبين:

– الليلة عرس، الليلة عرس، فاخرجوا...

فتحوا أبواب أكواخهم وخرجوا. كانوا كموتى يميطون عنهم تراب المقابر. نظروا إليه مستغربين، ثم اقتربوا ببطء ليتبينوا. كانت ثمة نساء حوامل وأمهات يحتضنّ أطفالاً عراة. في السماء كانت الشمس الآزفة لزوال يوم ترخي لونها الأحمر على سحب شاردة. "ما أشبه الربض بالجحيم!". فكر الحارس المأخوذ بما يجري. كل الوجوه بدت طويلة لشدة نحافتها، قاتمة، بشفاه مرتخية ومتدلية. غالب رغبةً جامحةً في البكاء، ثم مد يده إلى أول الواصلين. صافحه بوجه باش:

– مع ضوء شمس الغد أفتح لكم البوابات لتعودوا إلى بيوتكم...

ضحك الرجل ساخراً مما سمع. فتح فمه على وسعه ببَله، أمال رأسه يساراً، ثم مدّ لسانه، فازداد وجهه القبيح تشوهاً. أسنانه الصدئة، المتباعدة، وذلك السواد القابع خلف لسانه كصخرة في العمق، الشبيه بسواد المغارات، أضفيا عليه طابع الغرابة أكثر. أضاف الديلائي الشاب نافضاً رأسه:

– أنا جاد يا معتوه.

– بيوتنا نهبت، يا بغل، عشية دخولنا إلى ربض الطاعون. نُهِبَ كلّ شيء وما عاد في حوزتنا غير الكوخ والطاعون الذي أراح الكثير من الخلق واستغنى عنا.

اقتربت منه جمهرة كبيرة من البؤساء بعيون متطلعة. لاحظ أن أبواب عدة أكواخ ظلت مغلقة. لما سألهم عمن بداخلها ابتسموا. كرّر السؤال فأجاب الأبله:

– ماتوا ولم يدفنهم أحد.

من على يساره تحدث شيخ. كان هرماً وعلى وجهه بقايا من نعيم أفل. قال مبدياً بما أمكنه من سخرية:

- الأكواخ مقابر هي الأخرى يا رجل. قررنا أن يبقى كل هالك حيث هلك. هكذا سنموت أسرع مما خمن المخزن.

اقترب الأبله أكثر ثم شرع في الدوران حول الحارس متغنياً على نحو بائس:

- في الأكواخ موت وعفن، في الأكواخ طاعون وجرذان، اقترب، المشهد جميل والرائحة عطرة. خطوة واحدة وينتهي الأمر كله، خطوة واحدة ويكون لك ما تريد، كوخك الخاص، والرائحة العطرة، والطاعون.

تدخلت امرأة تمسك بيد طفل لم يتجاوز سنته الثالثة:

- إيه يا ولدي، في زماننا هذا الموت مقصد صعب لا يناله غير المحظوظين، فمرحباً بك، علّ حظك يكون أوفر فتأخذ نصيبك وترحل على عجل.

ابتسم مع شعور بالذنب. تأمل تلك الوجوه الكالحة والأجسام الضامرة؛ خردوات بشرية تواطأ عليها الزمن والمخزن. نسي الكثير من زمرة البؤساء كيف يمشي بانسياب، وفقد معظمهم القدرة على الحديث بطلاقة. كانوا أنصاف أحياء، لكنهم، بغريزتهم التي لا تخطئ، اجتمعوا، كما يلتم الذباب، في ساحة الربض الأولى، بحس انتقامي، ليناكفوا ما تبقى من حياة أذلتهم.

تحدث الديلائي الشاب بنفحة غلٍّ:

"يا نزلاء ربض الطاعون، أيها البؤساء، الليلة نحتفل بأحمد وزهرة

زوجين. في حلكة ليلنا، في دبر الحياة، سنرقص ونغني... وعلى مسافة أمتار منا رجال يذبحون، فريق دفاعاً عن الابن، آخر دفاعا عن الأب؛ دفاعا عن المخزن. الليلة نغني غير معنيين بالدماء التي تتدفق حولنا لتسقي أرضنا البور، وغداً نخرج جميعاً من الربض، نجوب شوارع المدينة والأزقة والحواري صارخين: المخزن هو الطاعون، المخزن هو الطاعون".

نظروا إلى وجوه بعضهم البعض في صمت، ثم إلى الأسوار العاليةِ. ما عادت الأسوار كما كانت، فقدت هيبتها وقيمتها، وأمكن لبعضهم أن يحلم بعالم واسع بلا أسوار ولا حرس ولا مخزن. النساء اللواتي لم يمت أطفالهنّ بعد، تضرّعن إلى السماء عسى الرحمنُ يجود عليهم بأرضٍ يكونُ لهم فيها مستقرّ إلى حين يكبرون.

أضاف مدفوعاً بحمية الدفاع عن الضعفاء:

"سنرقص ونغني. نعم، وفي الخارج تواصل الدماء تدفقها في أنهار لتروي أشجار السدر حيث تزهر ثمار النبق وتتدلى كأحلام موؤودة. الكثير من الأطراف تبتر الآن، لتسقط على جنبات الأسوار وفوق رؤوس المتقاتلين، والكثير من الأعناق تضرب، على عجل، دون أن يتسنى لأصحابها أن يبصقوا في وجه حياة بائسة.

وعبر كل الجماجم والأطراف المقطوعة التي يتسابق عليها الجوعى ليطعموا بها أبناءهم، عبر الجوع الذي تشعرون به، سيولد مخزنيّ كبير يعاود اللعبة مع أبنائنا، فيبني أرباضاً جديدة، ينتقي لها زبناء جدداً، ممن رفضوا دفع الضرائب أو جمعوا أكثر مما ينبغي من الدنانير، ويختار رجالاً لا يرحمون، أشبه بظباء، ليجبوا له الضرائب".

وسط الساحة أفسحوا متسعاً توسطته منحوتة الحاج عمرو.
تطوّع رجال للغناء، فجاءت أصواتهم مبحوحةً كفحيح الأفاعي، وانبرى آخرون يرقصون، رقص ديوك مذبوحة تضرب بأجنحتها على أرض غبراء.

وزع الخبازون الرغيف، وأواني ملأى بزيت الزيتون الحائل، على الجالسين. تمادى بعضهم فذرى الطحين على الرؤوس نكايةً في زمن الجوع. الخيزرانة العجوز رقصت بدورها حيث بالت، فاختلط البول بالتراب كما تختلط أفراحٌ بأحزان. الأطفال القلائل الذين نجوا من الطاعون، والذين لن تكتب لهم النجاة من فوهات بنادق المخزن، تابعوا ما يجري مشدوهين، حيث يتداخل الألم بالفرح، والأنين بالغناء، حيث يأتي الرقص إقبالاً على الحياة وتعبيراً عن رفضها.

٣٢

اجتاز الحوذي الشاب بوابة "إل بوبولو" فانكشفت المباني المطلية بالجير، تخترقها طريق متعرجة، مرصوفة بالحصى الصقيلة. توقف قبالة البيت. تأمل تلك البناية المؤلفة من ثلاثة طوابق، والمنتهية بعليّة يغطيها القرميد الأحمر. أغصان الحديقة المتدفقة فوق سورها القصير، المندفعة نحو الشارع كأيادٍ تشابكت في بحثها عن الانعتاق، تدلّ على هجر طويل. دقّق مليًّا في الرقم المنقوش في قطعة النحاس المثبتة على صدر الباب. التفت إليها:

– البيت مهجور سيدتي.

امتقع لون وجهها. في لحظة تحول بياض وجهها العاجي إلى دكنة المساء.

– لم ينجُ منهم أحد. قالت في شبه همس.

حافظت السيدة الجميلة على هدوئها وانزلقت في يسر إلى الرصيف. تبعها حسن المقري مأخوذاً بامرأة، فرحها كحزنها، يزيدانها تألقاً. وضع الحوذي الحقيبة على عتبة الباب وانقلب بعربته يقصد شارع الميناء بحثاً عن زبائن جدد. مع انطفاء وقع

سنابك حصانَي العربة، التي انزلقت عبر الشارع المنحدر، جثت ميرا على ركبتيها في عتبة الباب. تلمست الدرج الرخامي البارد، وصلابة حجارة الجدار، ثم نظرت إلى السماء، حيث لاح وجه أمها الضاحك. تذكرت بمرارة بسمة والدتها، دفء حضنها، والحكايات التي كانت تقص عليها إذا ما جفا عينيها النوم. وللمرة الأولى، منذ ذلك المساء اللعين، الذي ما زال متحجراً في ذاكرتها، ساور الشك قناعتها الراسخة: "أمي لم تهجرني، بل سيقت عن كرهٍ إلى مكان آخر على يد مغتصبٍ يشبه أبي، أو نخاس أعاد بيعها في سوق العبيد".

سألها حسن متأثراً:

– ما بك يا شهد؟

ثارت في وجهه:

– أنا لستُ شهداً. أنا ميرا، ميرا يا بغل.

اختلطت خصلات شعرها بدموعها مع الضوء الخافت لمشاعل الإنارة. "هنا مكانك يا شهد، وهنا تبدين أروع"، فكر متملياً وجهها وغضبتها. عادت إلى النظر إلى السماء واستمر نحيبها الخافت متقطعاً.

– أنت جميلة يا... ميرا.

قال فاغراً فاه.

– أنا... ميرا، ميرا.

حرك رأسه متجاوباً:

– أنت ميرا يا ملاكي.

ساعدها على الوقوف، نفض ملابسها من الغبار ثم مسح دموعها.

– لا تبكي مرةً أخرى، يا م– – يرا، وإن كان البكاء يجعلك أكثر فتنةً.

انحنت على حقيبتها، أخرجت مفاتيح أمها التي استمرت معلقةً لسنوات طويلة في غرفة المعيشة، ثم في غرفة نومها، قبل أن تعلقها كتميمة على صدرها. تابعها حسن مذهلاً وهي تولج المفتاح في الفتحة، وهي تحاول إدارة القفل. تلكأ القفل قبل أن يستجيب. فتحت الباب الخارجي ثم اندفعت عبر ممر مبلط إلى الداخل. كانت الحديقة، رغم ما طالها من إهمال، جميلةً بأشجارها وممراتها المبلطة بالحجارة الصقيلة. ارتقت أدراج المدخل الرخامي الكبير بانسياب امرأة تعرف المكان، أدخلت المفتاح فاستجاب القفل في يسر غير مكترث بسنوات العطالة الطويلة التي قضاها في انتظار مُلّاك لم تكتب لهم النجاة من يد قراصنة البحر. التفتت إلى الخلف. كان المقري لا يزال واقفاً على عتبة الباب الخارجي مشدوهاً.

– هيا، أدخل.

اندفعت إلى الداخل حيث سكن الظلام ورائحة الهجر. قفزت كطفلة فرحاً:

– رائحة أمي يا حسن، رائحة جسدها.

لم تنتبه إلى ابتسامته وهو يقف على مدخل الباب الكبير حاملاً حقيبتها. أبهته هفوتها:

– أنا لستُ حسن يا ميرا، أنا كونزالوس يا ملاكي.

٣٣

"وأنا على ظهر الحصان، في غابات إيموزار كندر، كانت الأشجار تمضي حولي كأشباح. أشجار الأطلس ليست مجرد أشجار، إنها ملائكة في النهار وشياطين بالليل؛ موطن الجمال تحت الضوء، ومرتع القبح في الظلام. الضوء الخافت للقمر الخنوع لا يستطيع ملامسة الأرض، كأملي في حياة الرغد والاستقرار، ظل معلقاً في السموات. تشبثتُ بحصاني الذي استمر يركض خلف حصان طامو. كلانا كان مشدوداً إلى سبيل لم يختره، منقاداً إلى طريق لا يعرف آخرها، في بيدر حصاده الريح.

أحبك يا طمو، ففي بأسك الذي يفوق بأس الرجال روعة، وفي شدتك التي ترهب فتنة، وعبر جسدك الممشوق تطفح أنوثة بنات جبال الأرز.

بقية ليل يأبى الانفراط، آلاف الأشجار تتراكم في ذاكرة أنهكها الترحال، ورياح الأطلسي الباردة، التي تخترق الجسد والروح معاً، ثم يضمنا بطن الوادي في السفح السحيق. الفجر الذي أطل متأخراً عبر سماء متحفظة وكتومة، جاء ساحراً بدوره، في مثل جمال طامو.

الجمال كالعشق يزهر في الشدة أكثر مما يفعل في الرخاء ليجعل العيش ممكناً أبداً".

– نرتاح هنا ثم نواصل؟

قالت طامو تشير إلى مدخل مغارة.

– كتفي تؤلمني. جرحي لم يبرأ تماماً ولعلي لا أستطيع المواصلة.

– سيبرأ فور دخولك فاس.

– فاس لم تعد كما كانت يا طام، أكلتها المحن والحروب.

سددت رصاصتين إلى جوف المغارة فتشعب الصوت في بطن الأرض ثم عاد متكسراً في شظايا متداخلة. تبسمت:

– المغارات تتجشأ فرقعة الرصاص مثلما تنز أجساد الرجال بالدم وقد اخترقها البارود.

أردفت:

– لا يوجد أحد، المغارة آمنة، يمكنك أن تدخل.

– ماذا لو كان ثمة رجل يا طامو؟

قهقهت:

– سيخرج فزعاً أو تصيبه الرصاصة فتقضي عليه.

علق مستنكراً:

– ليس القتل أمراً هيناً يا طامو.

– إنها الحياة يا حامد، لا بد أن يموت البعض ليبقى الآخر، وعليك أن تختار في كل مرة في أي جانب تكون، ومتى تهاونت عن أداء دورك كما ينبغي كنت أنت الخاسر.

نظرت إلى أعلى الجبل، وبعقيدة المحاربين الظافرين أضافت:

– أرفض أن أكون أنا الضحية يا حامد.

عقلا حصانيهما واسترخيا في بطن المغارة. غنت بصوت طري موالاً "زيانياً" رخيماً، ينبع من عيون الأطلس، ثم نامت وهي تمسك بالبندقية. "أنت رائعة يا طام، شامخة كالأرز، عظيمة كالأطلس، متلونة كحرباء". تأمل جسدها طويلاً، ثم غفا لينخرط في دروب أحلامه التي تتداخل كما تتشابك دروب فاس البالي. أحلام كثيرة وممزقة، لعالم غامض يتداخل فيه الحاضر بالماضي. رأى هذه المرة قوافل كثيرة ترسم خطوطاً على وجه البيداء، وبدل الزطاط الواحد كانت ثمة نسخ عديدة، ومتشابهة، لزطاطين ملثمين يقودون آلاف الرجال في صحارٍ لا حدّ لها. من فوق، بين الطيور التي تحلق، رأى رجالاً يشبهونه ممددين فوق الرمال. حاول أن يدنو من الأرض ليتابع الطيور، وهي تغير لتنتش لحمه، لكن صوت طامو جاء حاداً، وآمراً:

– أفق يا حامد، سنواصل الآن.

– فاس بعيدة وأنا منهك يا طامو.

– فاس قريبة يا حامد ووقت السفر قد حان.

أدرك حامد أنه يعيش حياتين متوازيتين؛ أولى في الواقع، وثانية في أحلامه، وأن الحياة الثانية بتعقيداتها وغموضها أعظم شأناً وأكثر زخماً من الأولى.

انتهت جبال الأطلس أخيراً وامتدت هضبة "السايس" منبسطة يسيرة الولوج. مضيا يغسل وجهيهما ضوء القمر، وبدل أشجار السرو انتشرت أشجار الزيتون خاوية الأغصان. رأيا خيام جيش مندوسا ونيرانها تتوهج من بعيد. كانت الخيام منتشرةً على مساحة

كبيرة كجثث غرقى وقد انتفخت بطونهم بالماء. قبيل الفجر دخلا مدينة دمرتها حروب الأعراب. عبر البوابة الضخمة، التي حوّل البدو خشبها إلى حطب لقدورهم. دخلا المدينة التي هجرها أهلها قاصدين الأمان، الذي لن يتأتى لهم، داخل أسوار فاس ومكناس. كان لصدى رنين سنابك حصانيهما وقع خاص، يمتزج برائحة الخراب فيأتي كأنين.

- مدينة تبكي.

قال لطام.

- الطوب كالناس، له أحزانه وشكواه يا حامد.

متكوماً على نفسه، في هيئة طفل مقهور، استمر متمسكاً بحصانه، أما هي فواصلت بذات رشاقتها وعنفوانها، تطل بندقيتها من خلف ظهرها لتشير إلى محاربةٍ لا تعرف الانكسار.

مضت عبر الطريق المبلطة بالحجارة إلى غاية قصر الحاكم الذي رفض الاستسلام، فقاوم إلى آخر رصاصة، ثم استعمل السيف الذي ضربت به عنقه. كانت الواجهة الأمامية للقصر مدمرة بالكامل وقد احترقت كل أشجار حديقته. في الجهة الخلفية للقصر ربطت طامو حصانها في الإسطبل. قلبت بقايا الروث ثم التفتت إلى زوجها:

- لم تدخل دوابٌّ إلى هذا الإسطبل منذ شهور.

- إلى أين يا طامو؟

- اربط حصانك واتبعني.

دلفا عبر بوابة القصر المنهارة الأطراف. قطعا البهو الفسيح الذي تراكمت على أرضيته الرخامية طبقات الغبار، ثم ارتقيا السلم إلى

الطابق الثاني، وعبر ممرٍّ طويل تتابعت نوافذ مكسورة الزجاج. رأى بقايا بقع دم سوداء قديمة، إحداها امتد طولياً لمسافة أمتار لينتهي مفترشاً مجالاً أوسع وأعرض. توقفت طامو لتشرح له بضعة تفاصيل. قالت له تشير إلى بداية شريط الدم:

– هنا تلقى المقاتل الطعنة. أنظر إلى رذاذ الدم المتدفق على الجدار.

أشارت إلى خصلات شعر على الأرض:

– إنها امرأة يا حامد. هنا سقطت، ثم زحفت إلى غاية بقعة الموت هناك، حيث استسلمت للموت.

رفع رأسه مشدوهاً:

– وأين اختفت الجثة يا طامو؟

قهقهت قبل أن تتحرك:

– في قدور البدو الذين أنهكهم الجوع فتصيّدوا جثث المتحاربين.

انتهى الممر إلى قاعة فسيحة كانت، في زمن أفل، فضاءً لأنس الحاكم وسهراته الحميمة. أطلت طامو اليفرني عبر إحدى النوافذ المشروخة، بدت لها المدينة، رغم ما ألم بها من دمار، جميلة تحت نور الصباح. انقلبت إلى غاية الجدار المقابل للمدخل ثم شرعت في تلمس الحائط على سيرة أعمى. توقفت لحظات، أخذت نفساً عميقاً، غمغمت: "إنه هو"، ثم دفعت بكامل قوتها لينفتح باب على غرفة بلا نوافذ.

– ادخل يا حامد، لنا هنا مستقرّ آمن إلى أن يحين المساء.

٣٤

أعلنت قبيلة "المهاية"، مع حلول اليوم السابع، رفضها لتموين جيش مندوسا الرابض على أراضيها وقد شحت مدخراتها القليلة وكثرت الشكايات بالجند الذين انتهكوا الحرمات وتمادوا في نهب البيوت.

– ليس بحوزتنا ما نطعم به أبناءنا والمواسم قحط كما تعلمون، وريح الوباء أهلكت النسل والحرث من قبل.

قال مبعوث الشيخ.

رد مندوسا يهدهد بندقيته:

– معكم يا رجل، معكم الكثير، ولسوف تدفعون، ثم تدفعون وتدفعون، راغبين أو مكرهين، إلى أن نغادر إلى فاس.

أخذ الرجل نفساً عميقاً وقد أغاظه تبجح القائد الذي يتحدث من على أريكته. أجاب:

– يؤسفني أن أخبركم أن وجودكم هنا، على أرضنا، بات محط استياء. مع حلول المساء تتيممون قبلة ترضونها لكم ولجندكم. مرابض البلاد كثيرة وفي بعضها ما لم يتوفر...

قاطعه مندوسا:

- سيحتاج جندنا، فضلاً عن الطعام والشراب، إلى نسائكم. ألا يستحق جندي حرم من فراش زوجته حضناً دافئاً يأويه ولو لسويعات؟... أنتظر منكم كرماً أعم. قل لمن أرسلك إننا ننتظر ألف امرأة مع حلول المساء.

كركر مزدرياً:

- لن نرحل إلا إذا خلفنا في أرحام نسائكم ما تتذكروننا به ما حييتم.

عب كوب نبيذ في جرعة ثم رمى به الرسول. غمغم:

- والله لنستبيح صبيانكم إذا عندتم، انبطحوا خيرٌ لكم وأسلم.

امتقع وجه الرسول من وقع الإهانة التي رُمِيَ بها، فقرر أن يرد:

- لجندك النساء أما أنت فلسوف تحتاج لفحل يمخر مؤخرتك.

صوّب مندوسا بهدوء ثم أطلق النار. ظلّ الرجل واقفاً للحظات، محافظاً على هدوئه، ومن بين فخذيه نفر دم غزير. تزاحمت أفكار كثيرة في ذهنه وقد عزّ عليه ألا يعود إلى زوجته التي أنجبت طفله البكر قبل أسبوع. تذكر بمرارة أن الليلة موعد عقيقة الوليد، قبل أن تفتر شفتاه عن ببسمة؛ لا بد أن يحمل ولده اسم أبيه المغتال.

- انكح ما طاب لك من الحور في الجحيم يا بغل.

قال مندوسا قبل أن يسقط الرجل على ركبتيه ثم ينقلب على ظهره وقد أظلمت عيناه.

لم يكن معظم الجند في حاجة إلى النساء وقد هلك الكثير، بعد أن خفت وطأة الوباء، جوعاً وبرداً. هرب البعض إلى الجبال، ولاذ آخرون بالمدن المخربة والقرى المهجورة في الجوار. يعلمون يقيناً

أن هذه الحرب لا تعنيهم، مثلما لا يعني أمرهم قائد الجيش الذي يريد أن يصل إلى الحكم على حساب دمائهم. انسحب جند كثر وبقي ميمون الراضي مع الباقين وإن كانت قبيلته التي انحدر منها على بعد عشرات الأميال فقط. فكر في الانتقام. كان أعداؤه كثراً يتلألؤون في سماء ذاكرته كما تتلألأ النجوم في سواد الليل. حلم بجيش يزحف على المدائن، في البسائط والجبال، ويدك العمران، حتى يعود البشر إلى عيشتهم الأولى، عيشة البداوة. مع متم الليلة الخامسة صار أكثر هدوءاً وموضوعية. أمكنه أن يجد له عدواً قريباً.

٣٥

مع الخيوط الأولى للفجر أخذ بعض المحتفلين في ربض الطاعون يتطلعون إلى فتح الأبواب التي أوصدت عليهم منذ شهور. الحارس الشاب الذي دخن قطعة أخرى من الحشيش، والذي رقص بجنون مصرفاً كل غضبه على مدى ساعات الليل، تجرأ على سحب الأغطية عن منحوتة الحاج عمرو الزرهوني الإدريسي. نزع الأغطية عنها واحدة فواحدة كما يعري عريس عروسه ليلة الدخلة وفي صدره إحساس بدنو عاصفة لن تستثني أحداً. صرخ:

– ما مات عمرو هدراً.

نظر نزلاء ربض الطاعون إلى وجه الرجل الباسم الممسك بشاقور، والضارب، في انحناءته، عنقاً ممدودة. لم يحتاجوا، وإن في غبش عتمة الفجر، إلى الكثير من الوقت ليتبينوا وجه الصراف. "إنه الحياني" قال البعض، "وذاك الخليفة"، أردف آخرون. أمسك الحارس برأسه مأخوذاً بدقة النحت. كانت الشاقور قد لامست العنق، وكان ثمة أيضاً وجهان متناقضان، أول باشّ ينظر إلى أعلى،

وآخر مغبون ينظر إلى أسفل.

منتشياً بما يجري فكر الديلائي الشاب في قطعة حشيش أخرى، غير أن غرفته بدت بعيدة جداً. صار جسده حملاً ثقيلاً عليه، على عكس الدنيا التي تخفّفت من أوحالها، فغدت خفيفة إلى الحد الذي لا تستطيع معه يد المخزن القبض عليها. وسط الهرج صرخ بما تبقى له من جهد في وجه معاونيه:

– افتحوا أبواب الربض.

التفت إلى البؤساء الذين اشرأبت أعناقهم إليه:

– اخرجوا وليذهب الخليفة إلى الجحيم.

تداخلت الأجساد ببعض وتضاربت الاتجاهات. قرر البعض البقاء. أسوار الربض لا تمنعهم من الخروج إلى العالم بقدر ما تمنع العالم من الدخول إليهم. قصد الرافضون للمغادرة ما تبقى من أكواخ مفضلين موتاً هادئاً على موتٍ صاخبٍ تحت جعجعة طاحونة الحياة. سحب أحمد بلانكو حبيبته، يعرف أنهما مهددان أكثر من غيرهما، وقبل أن يندفع وسط الجموع حطت عليه يد الحارس المتراخية. عانقه بتحنان:

– سأفتقدكما.

حرك أحمد رأسه متجاوباً. أضاف الحارس:

– أخرجا من باب الأعوان، ستجدان عربة تقلكما إلى حيث شئتما.

غرقا سريعاً وسط الزحام حيث تدافع مئات الأجساد التي تدفقت كسيل تبغي الخلاص. عند باب الأعوان بلغهما أزيز إطلاق

كثيف، استتبعه هرج وصراخ. رفع الحوذي صوته يستحثهما على الإسراع:

– هيا، اصعدا.

سأل أحمد بنفس متقطع:

– ما الذي يجري؟

كركر الحوذي بحماسة. القتل الجماعي يدغدغ عواطفه التي تحتاج إلى طوفان من الدم حتى ترتخي.

– جنّ الخليفة وقد بلغه نبأ حفلة ربض الطاعون فأمر بذبحكم جميعاً. اصعدا.

قفزا إلى ظهر العربة التي مرت مسرعة إلى جانب المدخل الرئيسي حيث كان الجند يصوّبون على البؤساء الذين بوغتوا بصليات الرصاص. عشرات الأجساد تكومت فوق بعضها البعض في مدخل ربض الطاعون على شاكلة متاريس. حاولت الخيزرانة العجوز أن تمر عبر كومة الجثث. تجنبها الموت على مدى عمرها الطويل وما حسبته يتجاسر عليها أخيراً. قفزت إلى الأرض ممسكة بقفة الدوم. دفعت الريح ثوبها الأسود الذي التصق بجسدها النحيف مضفياً عليها صفة شيطان يخرج من الجحيم. "لن أموت اليوم"، قالت بعزم قبل أن تخترق صدرها رصاصة جندي كانت سلته خاوية من العجائز.

انزلقت العربة بخفة إلى أزقة فاس البالي، وتحت ضوء نور أول الصباح الخافت أمكن لأحمد وزهرة أن يميزا وجه الحوذي النحيف. همست في أذن زوجها:

– إنه سائق عربة الموت.

أجاب بصوت أعلى:

– إنه هو.

– أنا سائق عربة الموت أقودكم إلى الحياة، ولا بد لي أن أعود لأحمل الخليفة إلى ساحة الفناء، حيث تدقّ عنقه كما دقت عنق أبي وآلاف المغبونين على وجه الأرض اليباب.

٣٦

أسرعت إلى إغلاق الباب. كانت كأنما تحمي عالمها الجديد من الانزلاق إلى الزوال. وكان الإحساس بالانتماء، بالقدمين راسختين، ثابتتين على الأرض، والانصهار مع ذاكرة المكان. فتحت النوافذ التي استجابت بانسياب غير معتبرة كل سنوات إغلاقها وطبقات الغبار التي سكنت في مفاصلها. فتحت النوافذ حتى تعود الحياة مع رياح البحر، المترعة بصور الياقوت والمرجان ورجالات أشداء لا يقهرون، إلى بيت العائلة الذي ضاق من طول الهجر. أسرجت قناديل البهو الواسع، تلكأت الذؤابات، ثم مدت الفوانيس ألسنتها بضوء مرتجف، متذبذب، ليلامس النور الخافت الأثاث الفاخر، والسقف العالي، المزدان بالنقوش. صرخت المرأة الثلاثينية كصبية وهي تجر عبدها:

– أنظر، إنها أمي، أمي...

– تامل حسن الصورة المرسومة بإتقان، ثم نفض رأسه نافياً:

– كلا ليست أمك يا ميرا، هذه أنت.

صعدت على كرسي من خشب الجوخ، مسحت وجه والدتها

بقطعة ثوب، فزاد الوجه وضوحاً وجمالاً. وضعت كفها على يد أمها المسترخية على زمن كان فيه والدها أحد أسياد تجارة البحر، ثم أرخت رأسها على حضن من ثوب وأصباغ. كانت عطشانة لحنان حُرِمتْ منه أبكر مما ينبغي، جوعانة لدفء العائلة الذي لم تخبر يوماً. غرقت في الصمت، حلاوة أقرب إلى العسل تفتقت على طرف لسانها، ثم عادت بعينين براقتين:

- أنا سليلة الجاه، وريثة الأكابر، لي الآن أملاك آل رودريكس وأموالهم. لم تخسر شيئاً بضياع ثروتك في فاس.

- أنت ثروتي يا ميرا. بعدك لم أعد أفكر في شيء.

قفزتْ إلى الأرض برشاقة القطط. حملت فانوساً وخطت عبر البهو، مدفوعة بشغف اكتشاف عالمها، إلى سلم لولبية صُنِعَت مراقيها من الرخام الأبيض. تتابعت على امتداد الجدار الأيمن للسلم صور عملاقة ذات إطارات مذهبة، بعضها لمريم العذراء، وعيسى ابن مريم، وأخرى لأفراد من عائلة آل رودريكس، حيث يبدو الثراء الذي عادت به تجارة الذهب والعبيد المزدهرة في القارة الجديدة جلياً. "لم يكونوا أثرياء وحسب، بل شغوفون بالمعرفة"، أيقنت من خلال المكتبة العريضة التي امتدت على طول بهو الطابق الأول. كانت ثمة كذلك صور لكريسطوف كلومبوس وجاليليو ووليام شكسبير... الذين حسبتهم امتداداً لأفراد عائلة آل رودريكس.

"أنا الآن في بيتي وهذا الذي يتبعني ككيس محشو بالحلفاء ليس أكثر من أريكة أضعها، بالطريقة التي أريد، وحيث أشاء، ومتى سئمت، متى ذكرني بسنوات الخزي، كنسته إلى بحر الظلمات"،

فكرت وهي تلج إلى إحدى القاعات المفتوحة. كانت ثمة طاولة طويلة من خشب العرعر تحفها كراس ذات مساند عريضة، من السقف تتدلى الثريات وعلى النوافذ الواسعة ترتخي الستائر التي تصف لحظة فراق أهل الدار عن دارهم.

– هنا كانوا يأكلون.

– نعم.

– وهنا... وهنا...

– نعم يا عيني.

عبْر ممرٍّ طويل تخللته أبواب متقابلة، وامتدت على أرضيته سجاجيد فارسية، مضت إلى غرفة ذات باب خشبي عريض ثبت عليه صليب مصنوع من النحاس. دفعت الباب، في الداخل كشف ضوء الفانوس غرفة نوم بشرفة مطلة على البحر. أنارت الفوانيس، وبسواعد امرأة لا تكل فتحت النوافذ ونفضت الغبار عن الأغطية، ومن الشرفة أمكنها أن تطلّ على حياة الغد الوديعة، حيث يقابلها البحر بفتنته التي لا تضاهيها فتنة. تحررت من ملابسها. لا يزعجها أن يتطلع إلى عريها أحد وهي التي جعلت من جسدها مطيتها لضمان بقائها في بلاد الملثمين. ارتمت فوق السرير، عانقت المخدة المحشوة بريش النعام واستسلمت لإحساس باذخ بالدعة. للمرة الأولى تشعر بجسدها كاملاً يرتخي، بالإعياء الذي تحملته على مدى دروب العمر الملتوية يتلاشى: "أنا أحيا، أبعث حيةً من جديد". لقد كفت الحياة أخيراً عن مخاصمتها. جلس هو على الكرسي في الجهة المقابلة، متشنجاً، منقبض الصدر، مشغول الخاطر، يرقبها

كحارس أمين. "ستجعلكِ ثروة آل رودريكس أجمل يا شهد، وأعلى مقاماً؛ أبعد عن اليد، وربما عن العين يا قرة عين"، خمّن. كانت حبيبته آخر آماله التي لا يقوى على خسارتها، وكان له الوقت الكافي ليتأمل الغرفة التي جهزت بذوق رفيع. الثريات والسجاجيد والمرايا والتماثيل... نظام محكم يستحيل في ذهنه إلى فوضى، وجمال يصير إلى إحساس بالرهبة. توقف طويلاً عند ساعة البندلوم التي ترتفع بقاعدة خشبية مربعة، بما يناهز، المترين، لتنتهي بلسان معدني متدل يتقدم خلفية بيضاء. توقف رقاص الساعة عن الحركة في منتصف ليلة ما من أرشيف يوميات الخواء والصمت. كفّ عن النبض منتظراً عودة شهد أو ميرا التي ستحفظ ذاكرة آل رودريكس وتعيد فتح أبواب محلاتهم. "تبا، يا ليتك فقدت السبيل إلى بيت عائلتك وبقيت فقيرة، محتاجةً إلى عَرَقِي وذكورتي"، قال وقد اطمأن لنومها. نهض عن الكرسي، انتبه إلى اللوحة المرسومة فوق مسند السرير. كانت ثلاث فتيات يتمددن تحت ظل شجرة بأجساد مكشوفة. وجد في كل واحدة منهن شيئاً من حبيبته. "لا ريب، من هنا تنحدرين". قبّلها بهدوء ثم مرّر كفه على تضاريس جسد حافظ على مقومات جماله في زمن الوباء والجوع والقهر. وبمنطق التاجر الذي يرفض خسارة أهمّ صفقة في عمره حمل الفانوس ومضى عبر الممر إلى السلم. مشى بسلاسة من عاش في هذا البيت دهراً. وفي الفناء السفلي الواسع قصد الطابق التحت أرضي. "أسرار البيوت توجد في مؤخراتها"، خمن وهو ينزلق عبر مراقٍ حجرية إلى قبو ذي دهاليز. أرغمته الأقواس الواطئة على الانحناء لبلوغ مداخل الحجرات. توقف لحظات،

وبحاسة تاجر خبير، بأنف كلب مدرب، وعين ثعلب، وقلب عاشق مرهف، وحاسة مجربة، قصد المكان الأنسب. انحشر في حجرة ضيقة. "هنا توجد عملة سكة من ذهب"، قال يتباهى بحدسه الذي توكأ عليه على مدى عمر طويل من الصفقات الناجحة. ثبت الفانوس ثم شرع في تقليب الأمتعة المتراكمة، وزحزحة التماثيل النصفية عن قواعدها، وبما أمكنه من دقة قلب كل شبر. "مستحيل"، قال غير مصدق لفشل حدسه في إصابة المبتغى. جلس على صندوق، يخمن في وجهة البحث، قبل أن يقفز على دأب مغنيي "كناوة" وقد أبرقت عيناه. لمح في ركن الغرفة الأيمن، عبْر انهياراتٍ جزئية، أشبه بقلّة من صلصال مندسة في الجدار. تهلل وجهه وامتلأ صدره حمداً. صرخ: "هو ذا، هو ذا المخبوء". أمسك بقطعة من حديد على عجل ثم شرع في دق الجزء المكشوف متغنياً: "سأحول سبائك الذهب إلى نقود، والنقود إلى سلع، والسلع إلى ثروة، ومن الثروة نفسها أجلب سبائك ذهب أخرى أصنع منها قيوداً تربطك جميلتي كالحمار إلى بيدر".

بالهمة اللازمة طرق الجزء المكشوف، سدد عدة ضربات مدفوعاً بشغف مُرابٍ. انفجرت "القلة" وانكشف "المخبوء" فاندفعت مياه صرف ركدت على مدى ثلاثة عقود. تدفقت على وجهه وغطته بالكامل. تراجع إلى الخلف، تابع بعينين مندهشتين ذلك الشرخ يفرغ حمولته السوداء العفنة كما يتقيأ مَعيٌّ ضخم أطناناً من الخراء.

جاء صوت هادر من خلف:

- تنتوي سرقتي يا كلب؟

أصابته المفاجأة الثانية بالذهول، أحسّ ببوله دافئاً ينزل عبر

فخذيه. مارت الأرض فاقتعد صندوقاً. تركز نظره على الشرخ الذي تابع إفراغ أمعائه. رد متلعثماً:

– ماذا أسرق يا امرأة من هذا الخراء؟

– نصيبك من رحلتك الأخيرة يا رجل.

حاول أن يدافع عن نفسه:

– لا يا ميرا، لا يا حبيبتي، لا تسيئي بي الظن...

بدا وجهها منتفخاً وفي عينيها لمح جفاء لم يعهده. حاول أن يقترب، لكنها ابتعدت، انحنت تحت الأقواس تتبعها مؤخرتها المنحوتة. صعدت المراقي على عجلٍ إلى الفناء الواسع. رأى حسن الجدران أعلى بكثير، الأثاث أكثر بذخاً، والحياة متمنعة على نحو غير مسبوق. وبالطريقة المثلى التي يمكن لسيد أن يطرد بها عبداً ما عاد محتاجاً لخدماته، فتحت باب البيت، انتصبت كصارٍ وارتسم ظلها الخافت متكسراً على الدرجات الرخامية. قالت ببرودٍ واستكبار:

– أخرج من بيتي، إن عدت أخصيتك.

٣٧

الشمس كعين الشيطان حمراء حاقدة، كرة لهب تتنزلق رابية بالمزيد من الضيم. فاس تكتوي، تتلظى... يطليها اللون الأرجواني، وبين الدروب تتلاشى آخر الظلال لتسكن الظلمات الأزقةَ والجراح المفتوحة وعيون الصبايا.

لا تتأوهي يا مدينة التاريخ والأحزان. انسي جراحك القديمة والبثور، وافتحي صدرك، كما كنت تفعلين دائماً، لسيافك الجديد، وابتسمي، ككل مرة، والسيف يمضي ليقطع أحشاءك، التي تنمو كالفطر، نكاية في الموت، ونكاية في الحياة.

فُتِحتِ الأبوابُ من الجهات الأربع فركع آخر المقاتلين للسلطان. وضعوا سيوفهم على أعناقهم وعرضوا على السيد الجديد ذبح أنفسهم بأيديهم طلباً للمغفرة مما صنعت أيديهم مكرهةً لا راغبة. وعرض صاحب الشرطة، دون أن يُطلب منه، أن يقدم الابن العاق لأبيه، حتى يكون عبرة للعامة والخاصة، وللقريب والبعيد.

وبشغفٍ بالغ، أطل الصباح من خاصرة الأرض على مدينة تتطلع بشبقٍ إلى يومٍ مشهود. نزل المطر ليلاً فاغتسلت الأسوار من الدماء

التي سالت عليها، وجرت في الشوارع السواقي تروي الجثث التي أهملت مع الأنفاس الأخيرة للحرب. حدائق الموت تحتاج أبداً إلى الدم، المطر يعيد إليها لزوجتها ويكشف البثور التي تتفتق كشقائق النعمان. وعبْر الدروب دعا منادٍ، باسم السلطان المنتصر، العامة إلى حفلة القصاص.

"الحُكم عقيم، يقطع الروابط كما الأعناق"، قال المأخوذون بما يجري وهم يفتحون نوافذهم ليتابعوا عربة الموت تمضي باختيال أفعى عبر التواءات الدروب.

ردد المنادي يقرع الطبل: "اسمعوا يا أهل فاس، مولانا السلطان يدعوكم لحضور القصاص في الساحة العامة عقب صلاة الظهر، فكونوا في الموعد، تبرأ جراحكم، وتطِبْ صدوركم بإحقاق الحق ونزول العدل، أطال الله عمر مولانا السلطان، وأعزّ به كلمة الإسلام". يمشي المنادي بتؤدة، وراءه تمضي عربة الموت كسلى، برنين خافت، تحمل سيد الأمس.

في درب العطارين أوقفت سيدة شابة الحوذي الذي استجاب بلا تردد. أطلت عبر قضبان العربة مركزة نظرها على وجه الخليفة. كان حزيناً، مكسورَ الجناح، غير مصدق أن قاربه جنح بالفعل إلى شط المحكومين بالموت. شعرت بالأسى يتسرب إلى صدرها. بدا مثيراً للشفقة وقد ذلّ بعد عزة. شابَ شعرُهُ وذبل جلد وجهه في أقل من سبع ليال. تطلع إليها. بادرت:

– تتذكرني؟

– زهرة المقري.

- المقري الذي سلبته ماله وشردتَ وَلَدَه وانتهكت عرضه.
- ثأرت له ولك.
- خاتمة الشر...
ابتسم على مضض وفي عينيه توهج بريق خامد. علّق ساخراً:
- إنها خاتمتي يا مجانين، لا خاتمة الشر. وماذا يكون أبي؟
صرخ في وجه الحوذي:
- هيا، سر بالعربة كما أمرك سادتك الجدد.
بصق الحوذي في وجهه:
- اخفض صوتك يا كلب، أنا سيد العربة الوحيد، وسيد من فيها، إلى أن أرمي بك إلى من يحز رقبتك ظهراً.
ارتفع صوت المنادي من جديد فاشرأبت المزيد من الرؤوس ثم تحركت العربة بذات البطء، تبعها جرسها المشؤوم هادئاً، كسولاً. لا بد أن يتباطأ الزمن، أن تتلكأ الشمس الصاعدة، حتى تطول عذابات السجين، أفراح المكلومين.
تحدث الحوذي بما أمكنه من تشفٍّ:
- أتعرف يا عزيز الأمس، ويا ذليلي اليوم، أن الناس لن يتذكروك بغير ما انتهيت إليه. كل بطولاتك الزائفة يمحوها هوانك وأنت تطوف مذلولاً في عربة الرعاع.
نظر الخليفة إلى وجوه الذين اصطفوا على جنبات الطريق لينظروا إليه. كانوا مهدودين، مكدودين، مثقلين بهموم لم تسمح لهم بالتمتع بعذابه. كانوا أكثر بؤساً مما خمن في أي زمن مضى.
تابع الحوذي:

- انتظرت ضرب عنقك طويلاً. مع كل رقبة، مع كل رجل يذبح، كان شوقي يزداد لليوم الذي ينفر فيه الدم عبر بلعومك وتتدحرج رأسك متمرغة في تراب الأرض.

أوقف العربة، التفت إلى الخليفة، المخلوع، والغارق في هزيمته:

- ولا بد لي أن أسوق والدك ذات يوم قريب، إلى نفس المكان، وأستمتع، كما أفعل معك الآن، بالسخرية من الشيطان. سئمت من ميتة البؤساء، أولئك الذين يجدون في موتهم خلاصهم من الجحيم الذي أبدعتم لهم في الأرض.

٣٨

عبر باب أبي الجنود ولجت طامو رفقة زوجها إلى أحشاء فاس.

– ما كل هذا الحزن يا حامد؟

– مدينة تبكي.

زادت السماء الغائمة من الجو الجنائزي. الجثث المتناثرة على قارعة الطريق أثارت حفيظتها.

– سحقاً لأهل فاس، ما هكذا يعامل المقاتل وقد مات وسلاحه في يده.

كان حامد سعيداً لبلوغه فاس التي لم يحلم بالعودة إليها. قصد فاس الجديد، ومنها إلى قصر والده الصغير. إنه لجنون أن يستعمل المفتاح ذاته ويدفع الدفة نفسها ثم ينزلق إلى الممر المفضي إلى المدخل. تطلع إلى الجدران العالية بعين متفحصة، والفوانيس المثبتة على الصواري. استمرّ كل شيء كما كان. قال لها:

– لم تترك لهم الحرب متسعاً ليعبثوا بأملاك المقري.

حركت رأسها تقديراً لجمال الأيدي التي أسهمت في رفع القبب وصنع أسقف الخشب المزخرف بفن العمارة الأندلسية وتثبيت قطع

الزليج والفسيفساء. تحدثت بهدوء وثقة:

– مكان جميل، يكفي لامرأة واحدة، واحدة يا حامد.

أسندت البندقية على صار من الرخام، نزعت الحذاء ثم تحررت من الزي الحربي مطلقة شعرها خلف ظهرها. اندفع صدرها دافقاً بشموخ جبال الأرز واعداً بالخيرات. ود حامد لو يدس وجهه بين نهديها العامرين، أن يغمر أنفاسه برائحة عرقها المعطر بعبير شجر السرو، ثم يلج سحر عوالمها، حيث تمتزج القوة باللين، الشدة بالرهافة.

على بعد بضعة أميال، بعيداً عن أسوار فاس، كان ميمون الراضي وسط خيمة قائد الجيش يقف وبندقيته مصوبة إلى رأس مندوسا. نظر المخصي غير مصدق. من الجنون أن تنتهي قصته برصاصة جندي مجهول. حاول أن يمد يده إلى سلاحه الراقد على مقربة، لكن خصمه كان يقظاً هذه المرة.

– اسحب يدك. لا بد أن تنتهي هذه الحكاية هنا.

"مستحيل"، فكر مندوسا. "سأغير على فاس، أطيح بالسلطان، ثم أزحف إلى مراكش لتكون عاصمة ملكي وأكون أول سلطان مخصي يحكم هذه الأرض".

– سأمنحك منصب صاحب الشرطة.

– اصمت.

– وأبني لك قصراً أعظم من قصر الخليفة.

– أغلق فمك...

– وسأمنحك حتى ترضى...

صوب بدقة إلى الفم الذي ابتلع الرصاصة وتقيأها من قفاه.
جحظت عينا مندوسا، قبل أن تطفئهما رصاصة ثانية اخترقت جبهته محولةً دماغه إلى ندف وعالمه إلى ظلام.

دخل الحارسان. استلم منه الأول البندقية، وانحنى له احتراماً:

– أشكرك نيابة عن الباشا وبقية الجند.

طلب منه الجندي الثاني أن يرجع خطوةً إلى الخلف.

– لك أن تنطق الشهادتين.

– لِمَ؟

– لا بأس، أجلهما إلى عالمك الثاني.

أطلق عليه ثلاث رصاصات في الصدر فخرّ ميمون الراضي على وجهه آخذاً معه سؤالاً بلا جواب: "ألم يكونوا هم من خططوا معي لقتل قائد الجيش؟".

٣٩

توقفت العربة أخيراً. كانت جمهرة غفيرة من البؤساء قد تجمعت لمتابعة المشهد؛ آلاف من النساء المدثرات والرجال جاءوا ليقفوا على مصرع الخليفة المهزوم، والكثير من الأطفال صاحبوا آباءهم بملابس الأعياد ليحتفلوا. نزل الحوذي مختالاً، تعمد أن يتباطأ وهو يفك النير عن الحصان، فتح الباب الخشبي، وانتظر إلى أن يرفع السجين رأسه حتى يُنكِسَ مؤخرة العربة. تدحرج المحكوم إلى الأرض فاهتاج الحضور. تماسك السلطان الذي حضر ليتابع مقتل ابنه من محلته وقد أصدر قراره بمعاملة ولده، وهو يساق إلى حتفه، معاملة الرعاع بعدما شقّ عصا الطاعة عليه وأراد بملكه السوء. سيق ككبش إلى منصة الحكم التي نصبت وسط الساحة، حيث وقف السياف ملثم الوجه. "إنه الحياني جاء ليأخذ بثأره"، قال كثر ممن رصدوا الشبه بين قوام السياف وقوام الصراف. "إنها الشاقور نفسها التي قطعت بها رقبت الحياني"، قال من بلغه قرار السلطان، بأن يقضي ابنه بما حاكم به الصراف؛ خادم الدولة الأمين.

– كل نفس ذائقة الموت وها قد أزف وقتك وحان ميقات تسليم

الروح إلى بارئها. قف على قدميك وانظر إلى كل هؤلاء البؤساء الذين جاءوا ليشيعوك.

- جاءوا ليشمتوا في من أذلّهم.

- إنما الملك لله، استغفر ربك.

أجال الخليفة النظر إلى أن استقر على وجه أبيه الشاحب. حرص السلطان أن تبدو محلته في كامل زينتها، فجاءت مظلته بيضاء في غاية النصاعة، وأريكته تامة الجمال بقوائمها المفضضة وثوبها المخزني، مصحوباً ببطانته، وولي أمره الجديد على فاس. حرك الأب المكلوم رأسه بأسى، فابتسم الابن، ثم جثا على ركبتيه يمد عنقه للسياف نكاية في الأب، لسان حاله يقول: "إن دمنا معا ما سيسفك بعد لحظات يا أباً مسّه المُلك بالعمى قبل أن يمسني".

دنت لحظة الحسم فدفع السياف الشاقور بقدمه تحت وجه الخليفة. ولما لم يأتِ المحكوم فعلاً يليق بما دُبر له انحنى الجلاد، مد يده إلى مقبض الشاقور، ثم دنا من وجهه يهمس له:

- صدق الصراف إذ قال إنك لَمقتول بما قَتلتَ به، وأصاب الحاج عمرو الزرهوني الإدريسي وقد أنطق الصخر، وإنه لغريب أمر هذه الدنيا يا سيد الأمس، ملعون من آمن لها.

أُدهِشَ الخليفة المعزول ثم خرّ على صدره. انتظر السياف إلى أن هدأ اضطراب المحكوم واستعاد شيئاً من اتزانه. ربّت على كتفه مواسياً، ثم حثه على البقاء متماسكاً فامتثل. ثبّت يديه على خشب المنصة متيمماً شطر والده حتى يصيبه الجزّ في مقتل. تحدث إلى السياف:

– قل للسلطان إنه لَمقتول بما قتل به.

انحنى السياف مجدداً، همس في أذن المحكوم:

– والله لأبلغنّ العامة والخاصة بما قلتَ، وإنه لمقتول بما قتل به في يوم قريب.

رفع رأسه، نظر إلى السماء يودع الدنيا مكرهاً. ما عاد يرى جمهرة الناس ولا أحسّ بوجود والده، أصاخ إلى غيمة أشد سواداً، تذكر أعياد الفطر والمولد، والأحصنة التي كان يركبها في زمن الصبا رفقة والده في مواسم الصيد. رفع السياف الشاقور عالياً فتمزق صدر الأب. خالج السلطانَ شعورٌ بالندم وقد استحضر صورة الطفل النزق الذي يتشبث بأطراف برنسه، فالصبيّ المندفع الذي يحضر مع أبيه لقاءاته مع كبار قادة المخزن. همس مستشاره في أذنه:

– لا يزال بالإمكان مراجعة الحكم.

– قضي الأمر.

ثم بكى في صمت، بلا دموع.

في إحدى أزقة فاس البالي، في بيت المقري القديم وسط حي العطارين، كانت زهرة مسترخيةً إلى جانب زوجها وقد امتنعا عن حضور حفلة القصاص. قبّلها بوله فاستجابت بشغف. داعبها. كانت جميلة لم تأخذ منها المحن الشيء الكثير. ضمته إليها فتدفق الدم في عروقه عاصفاً يلح طلباً في الوصال.

– إذا رزقنا بولد ماذا نسميه يا أحمد؟

– نسمّه العربي، العربي يا زهرة الروح.

قالت وهي تتأوه تحته:

- وإن كانت بنتاً نسمّها أمل يا عيني أمل.

نزلت الشاقور. في الأفق انقشعت الشمس وتدفق شعاعها الفضي يطلي الأرض. تدحرجت الرأس عبر المنصة الخشبية إلى التراب. صاح الجمهور باسم السلطان الذي انقلب إلى قصره، يتحسّس عنقه، مكابداً ألماً لا يقوى عليه.

فاض أحمد عشقاً ثم ارتخى على جسدها يغمغم:

- توأم يا زهرة، توأم يا نور العين.

٢٠١٦/٥/٢٩

برنامج "آفاق لكتابة الرواية"

أطلق الصندوق العربي للثقافة والفنون برنامج "آفاق لكتابة الرواية" في عام ٢٠١٤، ساعياً لدعم مواهب روائية شابة ومواكبتها وتمكين قدراتها الروائية والإبداعية. امتدّ البرنامج على ثلاث دورات، مدة كل دورة سنة ونصف، وتتضمّن كل منها ثلاث ورش عمل مكثفة. أقيمت الدورة الأولى (٢٠١٤) بالشراكة مع محترف نجوى بركات، بينما أشرف الروائي اللبناني جبّور الدويهي على الدورتين الثانية (٢٠١٥) والثالثة (٢٠١٦).

اليوم، وبعد انتهاء الدورة الثانية، يمكن التأكيد أنّ هذه التجربة كانت أكثر عمقاً وتأثيراً ممّا توقّعنا، إذ لا يمكن وصف أثر هذه اللقاءات المكثفة، بما حملته من نقاشات وتبادل آراء بين الكتّاب والمدرّبين، على أفكار الروائيين المشاركين ومشاريعهم. كما لا يمكن تثمين الرابط الإنساني الحميم الذي وُلد وتوثّق بين أفراد لم يلتقوا من قبل، فوجدوا أنفسهم يتشاركون الأحلام والأسرار، الهموم والتطلّعات.

يسرّ "آفاق" أن تكون جزءاً من هذه التجربة الفريدة، وأن تسهم بإغناء المكتبة العربية بخمس وعشرين رواية متميّزة من تسعة بلدان عربية، لكلٍّ منها أسلوبها وصوتها الفريد. بعضها كان أقرب إلى السرد الشخصي، بينما عالجت أخرى مواضيع ذات أبعاد اجتماعية وسياسية، ولكن، على رغم العوالم الخاصة لكل منها، لم تبتعد عن هموم العالم العربي وتساؤلات شبابه وطموحاته التي نقلها كتّاب هذا البرنامج بأسلوب مشوّق وراقٍ.

’تحت مطر عدائي خرج الكثير من المحاصرين ثم شرعوا في الرقص تباعاً. بدوا كثيران تنتفض على مروّضيها. تقافزوا، تدافعوا... شتموا بعضهم بعضاً، آباءهم الذين جاؤوا بهم إلى عالم منخور، والمخزن والأرض والقدر... تكاثروا، وفي لحظة كانت الأكواخ قد أفرغت كل بذاءاتها. في الساحة الأولى ظهرت صخرة الربض، المغروزة كوتدٍ في الصدر، كسفينة تمخر عباب بحر الظلمات. سارع الحارس إلى فتح الباب فاستفرغ الربض حمولته. سالت المياه على التل مخلفةً سفينة الصخر مرتهنةً بقدر الطاعون...‘

في عالم موبوء لا سلطان فيه لغير القهر، حيث يتحالف بأس الطبيعة وسطوة السلطة وجشعها لإذلال الإنسان، تقتفي هذه الرواية سيرة العشق في زمن الخراب، حيث لا تُحجّم أنهار الدم روعة الأنثى التي تعيد بخصبها رسم خرائط جديدة للحياة.

محسن الوكيلي كاتب وروائي مغربي. حاز جائزة غسان كنفاني عن مجموعته القصصية ’تيه‘، وجائزة ناجي النعمان العالمية للإبداع، في بيروت، في دورتها 11 عن مجموعته القصصية ’حيّ العابرين‘.



ISBN 978-6-14425-961-0





www.daralsaqi.com



www.arabculturefund.org